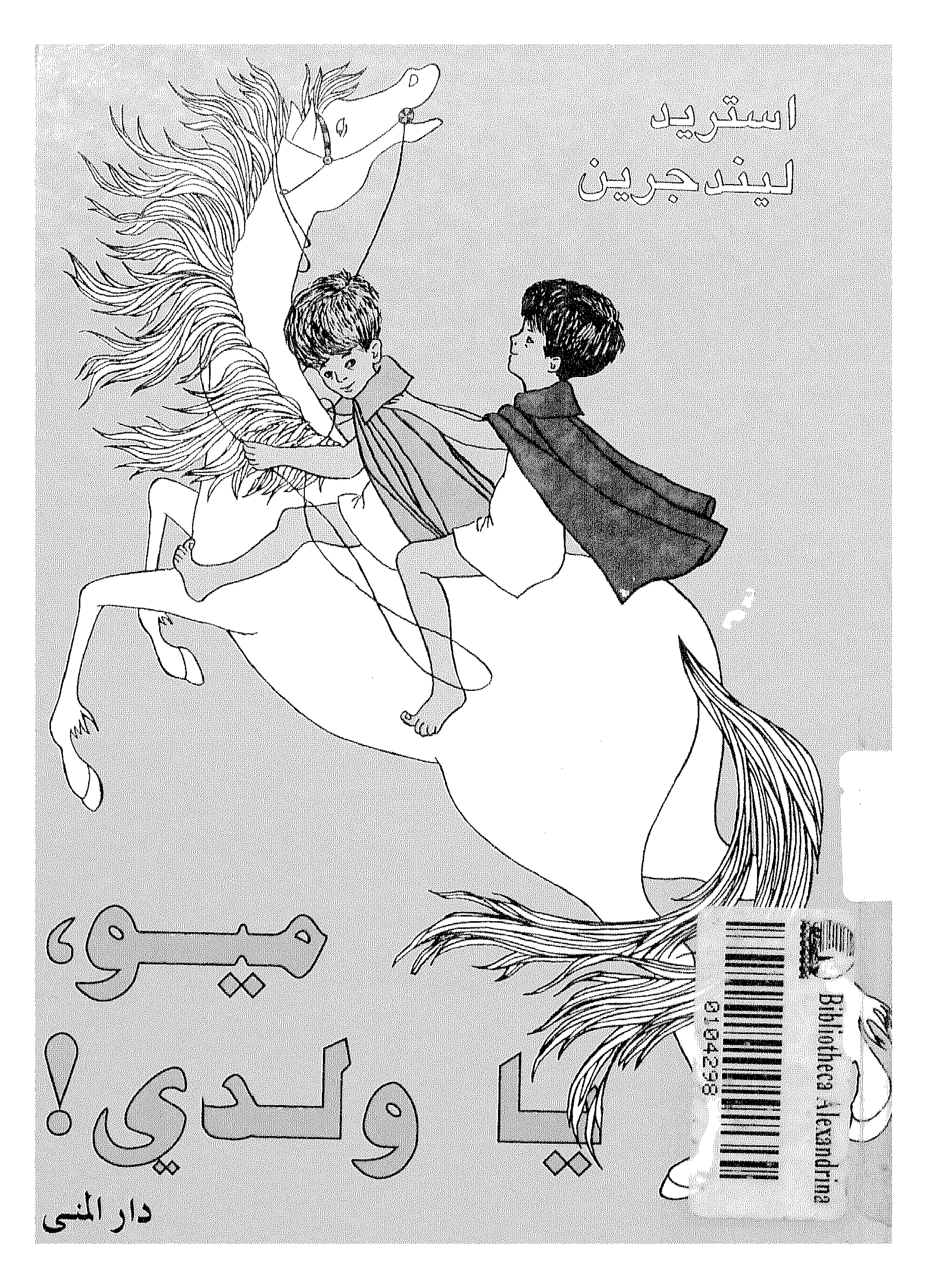

استريد
ليندجرين
ميو،
يا ولدي!
دار المنى

ميو، يا ولدي!



أستريد ليندجرين

ميو، يا ولدي!

النص العربي بقلم: د. وليد سيف

دار المنى

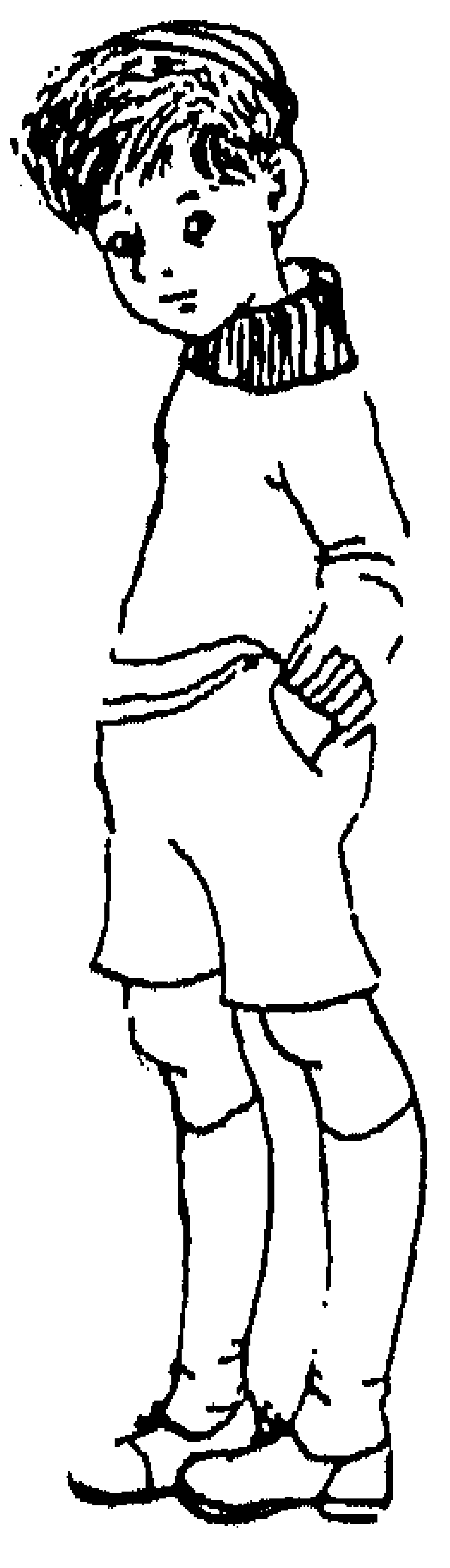
First published in Sweden by R. & Sjögren
Illustrations by Illon Wikland
Arabic text: Dr Walid Saif

Originally published as «Mio Min Mio»

Printed in Sweden 1995
ISBN 91 88356 48 5

Dar Al-Muna
Box 127
S-182 05 Djursholm
SWEDEN

١. إنه يرحل ليلاً ونهاراً



هل استمعتم إلى المذياع في الخامس عشر من شهر أكتوبر/تشرين أول في العام الماضي؟ هل استمعتم إليهم يتساءلون عمّن شاهد الصبيّ الذي اختفى فجأةً؟ هذا ما أذاعوه:

«يبحث رجال الشرطة عن الطفل كارل أندرز نيلسون البالغ من العمر ثمانية أعوام بعد أن اختفى فجأة من منزله الكائن في شارع نورث منذ الساعة السادسة مساءَ أوّل من أمس. كارل أندرز نيلسون ذو شعر أشقر وعينين زرقاوين، وفي وقت اختفائه كان يرتدي «بنطالاً» بنّياً قصيراً «وكنزة» رماديّة ويضع على رأسه قبعة

حمراء. يرجى ممن رآه أو كان لديه أية معلومات عنه أن يتصل بأقرب مخفر للشرطة».

هذا ما قالوه. ولكن لم يتلقّ أحد أية معلومات عن كارل أندرز نيلسون. لقد اختفى تماماً ولا أحد يعرف مكانه. لا أحد يعرف غيري، إذ انني أنا كارل أندرز نيلسون.

ولكني أتمنّى لو كنت أستطيع إخبار صديقي «بن». بكلٍ شيء. لقد اعتدت أن ألعب معه. وهو يعيش في شارع نورث أيضاً. اسمه الكامل بنجامين، ولكن الناس اعتادوا أن ينادوه بـ «بن». وأنا كذلك لا يدعوني أحد باسمي «كارل أندرز»، إذ يكتفون بـ «أندي».

أعني هكذا كانوا يدعونني. أما الآن وقد اختفيت فلا أحد منهم يناديني بأي اسم. لم يكن أحد يناديني باسمي «كارل أندرز» إلاّ العمّة هولدا والعم أولاف. في حقيقة الأمر لم يكن العم أولاف يناديني بأيّ اسم، إذ نادراً ما كان يكلّمني.

لم يكن أولاف وهولدا عمّي وعمّتي حقاً. ولكن هكذا اعتدت أن أناديهما، فقد تكفّلا بإيوائي وتربيتي منذ كنت في السنة الأولى من عمري. قبل ذلك كنت أعيش في مأوى للأيتام والأطفال مجهولي الأبوين. ومن هناك أحضرتني العمة هولدا إلى بيتها. كانت تريد أن تتبنّى بنتاً لا صبيّاً، ولكنها لم تجد أيّة طفلة في المأوى. وهكذا أخذتني أنا على الرغم من أن العمّ أولاف والعمّة هولدا لايحبّان الصبيان، وبخاصة حين يبلغون الثامنة أو التاسعة. فهما

يعتقدان أنني أصدر الكثير من الضجيج في البيت، وأنني أعود لهم بالوحل من اللعب في المُتَنَزّه وأنني أبعثر ثيابي يميناً وشمالاً على أرض الغرفة، وأنني أضحك وأتحدّث بصوت مرتفع. ولطالما كانت العمّة هولدا تقول: «لقد كان اليوم الذي جئتنا فيه يوماً أسود!» أمّا العم أولاف فلم يكن يقول شيئاً. بلى! كان يقول: «اغرب عن وجهي! لاأطيق النظر إليك.»

كنت أقضي معظم وقتي في بيت «بن». كان والده يظهر له الكثير من الحب، فيطيل الحديث معه، ويساعده في صنع نماذج الطائرات، ويضع علامات على باب المطبخ تُظْهِرُ مدى ما وصل إليه من الطول من حين الى آخر، ويفعل أشياء أخرى من هذا النوع. كان «بن» حراً في أن يضحك كما يشاء، ويتحدث كما يشاء، ويترك ثيابه أنّى شاء، فوالده يحبّه في كل حال. وكان يُسْمَحُ له باستقبال جميع أصحابه في بيته حيث يلقون الترحيب. أما أنا فلم يكن يُسْمَح لي باستقبال أحد في البيت لأن العمة هولدا لاتطيق حركة الأطفال دخولاً وخروجاً. وكان العم أولاف يوافقها على ذلك قائلاً: «يكفينا همّ هذا الولد الذي عندنا.»

أحياناً عندما كنت آوي إلى فراشي كنت أتمنّى لو كان والد «بن» والدي أنا أيضاً. ثم أتساءل في نفسي: ترى من هو والدي الحقيقي؟ ولماذا لا أعيش معه ومع أمّي بدلاً من مأوى الأطفال أو الحياة مع العمة هولدا والعم أولاف؟ أخبرتني العمّة هولدا أن أمّي ماتت لحظة ولادتي، ثم قالت: «أما من أبوك! فلا أحد يعرف.

ولكن من السهل أن تتصوّر أنه كان إنساناً تافهاً لاخير فيه.»
كرهت العمّة هولدا لكلامها عن والدي بهذه الطريقة. لعل أمّي قد ماتت حقاً وقت ولادتي، ولكني **متأكد** من أن والدي لم يكن إنساناً تافهاً. أحياناً كنت أتمدّد على فراشي وأبكي تحرّقاً لمعرفته ولقائه.

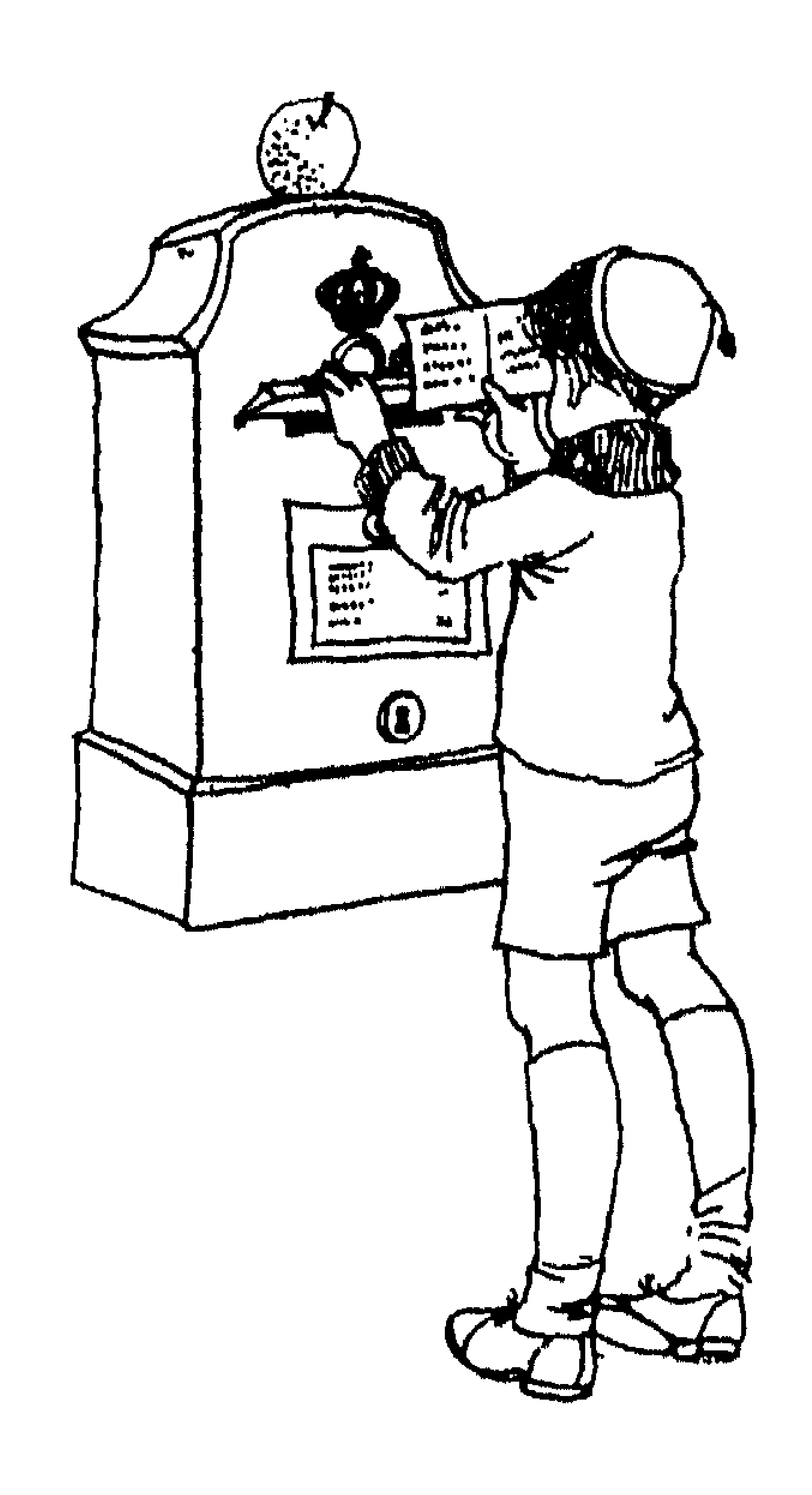
كانت السيّدة لوندي صاحبة دكان الفواكه من الناس الذين يعاملونني بلطف وطيبة. وكان من عادتها أن تقدّم لي بعض الحلوى والفواكه.

والآن لا أملك إلاّ أن أتساءل عن حقيقة شخصيّة السيّدة لوندي. من كانت تلك السيّدة في الحقيقة؟ ذلك أن ماجرى لي بعد ذلك إنما بدأ معها في ذلك اليوم من شهر أكتوبر/تشرين الأول من السنة الماضية.

في ذلك اليوم ردّدت العمّة هولدا على مسامعي مرّات عدّة أن اليوم الذي جئتهم فيه كان يوماً مشؤوماً. وقبيل الساعة السادسة طلبت منّي أن أسرع الى المخبز في شارع كوينز لأشتري لها بعض الخبز المفضل لديها. وضعت قبعتي الحمراء على رأسي وانطلقت.

حين بلغت محلّ الفواكه رأيت السيّدة لوندي واقفة في مدخل المحلّ. ربّتَتْ على خدي وأمعنت النظر فيّ لوقت طويل، ثم قالت: «هل لكَ في تفاحة؟»

قلت: «نعم، من فضلك.» وهكذا أعطتني تفاحة حمراء جميلة وجذّابة جدّاً وقالت: «هل تتكرّم بإسقاط رسالة لي في



صندوق البريد؟»

قلت: «نعم. بالطبع.»

كَتَبَتْ بعضٍ الأسطر القليلة على بطاقة بريدية وأعطتني إياها، ثم قالت: «وداعاً يا كارلٍ أندرز نيلسون.»

بدا ذلك غريباً فعلاً، فهي لم تنادني قط قبل ذلك إلاّ بـ «أندي». ركضت إلى صندوق البريد الذي يبعد مسافة قليلة. وحين أوشكت على إسقاط البطاقة في الصندوق وجدت أنها تلمع وتشعّ كالنار. نعم، كانت الكلمات التي خطّتها السيدة لوندي تشع كالنار! ولم يكن في وسعي إلاّ أن أقرأها. كانت الرسالة تقول:

إلى: الملك
فاراوايلاند
إن الشخص الذي مافتئت تبحث عنه في طريقه إليك. إنه يرحل ليلاً ونهاراً ويحمل في يده العلامة ـ التفاحة الذهبيّة.

لم أفهم كلمة واحدة من الرسالة، إلاّ أنني شعرت برعشة تسري في ظهري من أثر الكلام. أسقطتِ البطاقة في الصندوق على عجل.

ترى من هو الذي يرحل ليلاً ونهاراً؟ من يحمل في يده تفّاحة ذهبيّة؟ وهنا التقط بصري التفاحة التي أعطتني إياها السيّدة لوندي. ولدهشتي وجدتها الآن مصنوعة من الذهب! كانت في يدي تفّاحة ذهبيّة!

كادت الدموع تنفجر من عيني ـ كادتٍ ولم تسقط. شعرت بالوحدة الشديدة. فمضيت إلى مقعد في المُتَنَزّه وجلست عليه. لم يكن هناك أحد. فالكل عاد إلى بيته لتناول العشاء. كانت العتمة قد بدأت تلف الأشجار، وكانت السماء تمطر رذاذاً خفيفاً. ولكنّ الأضواء كانت تنبعث من البيوت المحيطة بالمُتَنَزّه من كل ناحية. كانٍ في استطاعتي أن أرى الضوء المنبعث من نافذة بيت «بن» أيضاً. كان يجلس في الداخل هناك ويتناول الطعام والفطائر مع أمّه وأبيه. وتهيّأ لي أن وراء كل نافذة يشع منها الضوء كان ثمّة أطفال في البيت ينعمون بصحبة آبائهم وأمهاتهم. أنا الوحيد الذي كان يجلس هناك في العتمة. وحدي! وحدي وفي يدي تفاحة ذهبيّة لا أدري ما أفعل بها.



وضعت التفاحة بعناية إلى جانبي على المقعد، وتركتها هناك بينما ذهبت في التفكير. كان أحد مصابيح الشارع قريباً منّي، فيسقط ضوءه عليّ وعلى التفاحة. ولكنه كان كذلك يسقط على شيء ما ملقىً على الأرض. لم يكن ذلك الشيء غير زجاجة عصير عاديّة وفارغة بالطبع. ولاحظت أن ثمّة عودا من الخشب يسدّ فاه الزجاجة وعنقها. قدّرت أن شخصاً ما، لعلّه أحد الأطفال الصغار الذين يلعبون في المُتَنَزّه، قد حشر قطعة الخشب في عنق الزجاجة. التقطت الزجاجة وتأمّلت فيها، وهنا تنبّهْتُ إلى شيء يتحرك في داخلها.

لقد استعرت من المكتبة في أحد الأيام كتاباً بعنوان «ألف ليلة وليلة». وقرأت فيه عن جنّي محبوس في زجاجة. ولكنّ ذاك قد حدث بعيداً بعيداً في بلاد الشرق قبل ألوف السنين. ولايخطر في بالي أن الجنيّ يمكن أن يكون داخل زجاجة عصير عاديّة مما تنتج المصانع المعروفة. ولكنْ، كان هناك جنيّ في تلك الزجاجة حقاً. نعم كان هناك جنيّ حقاً يجلس في داخل الزجاجة. كان من الواضح أنه يريد الخروج. أشار إلى قطعة الخشب التي تسدّ عنق الزجاجة ونظر إليّ نظرة رجاء. بطبيعة الحال لم أكن معتاداً على الجنّ، فانتابني الخوف الشديد حتى كاد يعجزني عن سحب قطعة الخشب. ولكني فعلت. واندفع الجنيّ خارجاً من الزجاجة مع زأرة هائلة، وبدأ يكبر ويكبر حتى صار أخيراً أطول من جميع البيوت المحيطة بالمُتَنَزّه، هكذا هم الجن. يستطيع أحدهم أن يتقلص حتى

يكون بإمكانه أن يستقرّ في زجاجة، وفي لحظة أخرى يتضَخّمَ حتى يصيرَ في حجم البيوت.

ليس بإمكانكم أن تتصوّروا مدى الرعب الذي انتابني في تلك اللحظة. أخذ جسدي كلّه يرتجف من هول المنظر. ثم تحدّث الجنيّ. كان صوته أشبه بزئير هائل. وهنا تذكرت العمة هولدا والعم أولاف وتمنّيت أن يسمعا هذا الصوت؛ فقد كانا دائماً يتّهمانني بأنني أتحدث بصوت مرتفع!

خاطبني الجنيّ قائلاً: «أيها الصبيّ. لقد حرّرتني من سجني. وأنت الآن تستحق جائزة منّي. اذكر رغبتك لأحققها لك.»

لم يخطر في بالي أنني أستحق جائزة لمجرّد أنني سحبت قطعة صغيرة من الخشب. أخبرني الجنيّ أنه قدم إلى هذه المدينة في الليلة الماضية وأنه دخل في الزجاجة لينام. هذه عادة الجن. إنهم لايفضّلون عن الزجاجة مكاناً آخر للنوم. ولكن أحد الناس دسّ خشبة في عنق الزجاجة أثناء نومه. ولولا أنني أنقذته لمكث في داخل الزجاجة آلاف السنين حتى تتحلّل قطعة الخشب.

قال الجني كأنه يحدّث نفسه: «لو حدث ذاك لأغضب سيّدي الملك.»

ثم استعدت شيئاً من رباطة جأشي وسألت قائلاً: «من أين قَدِمْتَ أيها الجنيّ؟»

صمت لحظة قصيرةً ثم قال: «جئت من فاراويلاند.»

قال ذلك بصوت مرتفع قرع مسامعي وضجّ في رأسي كأنه

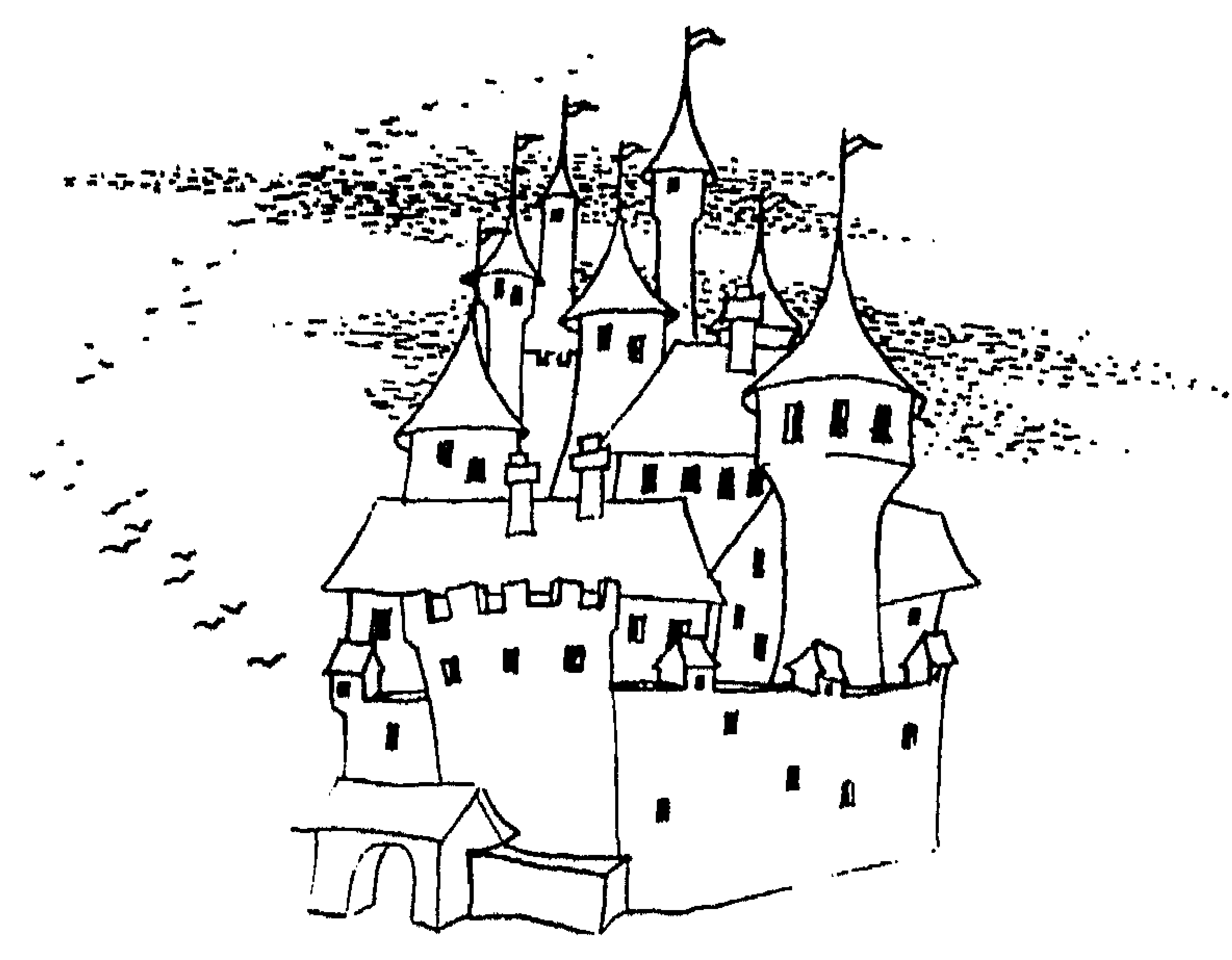
الرعد. ثمّة شيء ما في صوته جعلني متشوقاً لزيارة تلك الأرض. شعرت برغبة جارفة للذهاب إلى هناك كأن حياتي تعتمد على ذلك. مددت ذراعيّ نحو الجنيّ وصحت: «خذني معك! أرجوك خذني إلى فاراويلاند! هناك من ينتظرني في تلك الديار.»

هز الجنيّ رأسه حائراً. عندئذ أريتُه التفاحة الذهبيّة فأطلق صيحة مدويّة، وقال: «إنك تحمل بيدك العلامة! أنت الذي جئتُ هنا لإحضاره. أنت الشخص الذي مازال الملك يبحث عنه منذ وقت طويل.»

انحنى ورفعني بذراعيه. وبينما كنا نصعد في الفضاء كان قَرْعُ الأجراس وهزيم الرعد يحيط بنا. خلّفنا المُتَنَزَّه بعيدا أسفل منا - خلّفنا المُتَنَزَّه المعتم الموحش وجميع البيوت التي كان ينبعث الضوء من نوافذها ويجلس فيها أطفال يتناولون العشاء مع آبائهم وأمّهاتهم، بينما كنت أنا، كارل اندرز نيلسون، أنطلق إلى الأعلى في الفضاء الواسع تحت النجوم.

طرنا عالياً فوق السحاب بسرعة تفوق سرعة البرق ومع ضجيج أعلى من الرعد. كانت النجوم والأقمار والشموس تتلألأ من حولنا، في بعض الأوقات كان الظلام الشامل يعمّ الفضاء حولنا، ثم مايلبث الفضاء حتى يتوهج بالضوء والبياض حتى أضطر إلى إغماض عينيّ.

همست لنفسي: «إنه يرحل ليلاً ونهاراً! ذلك ماكان مكتوباً على البطاقة.»



فجأة مدّ الجنيّ ذراعه وأشار إلى شيء بعيد ـ شيء أخضر في محيط من الماء الأزرق الصافي وشعاع الشمس البرّاق.

قال الجنيّ: «تستطيع الآن أن ترى فاراوايلاند.»

وهكذا بدأنا الهبوط نحو الجزيرة الخضراء.

كانت جزيرة تقع في وسط البحر كأنها تستحم فيه. وكان جوّها مشبعاً برائحة آلاف الورود وزهور الليلك. وثمّة موسيقى غريبة تنبعث في المكان. إنها أجمل موسيقى سمعتها في حياتي.

هبطنا على الشاطيء حيث يوجد قصر عظيم أبيض بمحاذاته.

رأيت رجلاً مقبلاً يمشي على حافة الماء. لقد كان ذاك *أبي الملك!* ميّزته في اللحظة التي رأيته فيها. لم يخامرني شك في أن هذا

هو أبي. فتح ذراعيه لي فركضت نحوه مباشرةً. ضمّني إلى صدره وقتاً طويلاً. لم نقل شيئاً. كل مافعلته هو أنني طوّقت عنقه بذراعيّ والتصقت به التصاقاً شديداً بأقصى ما أستطيع.

آه كم تمنّيت لو كان في استطاعة العمّة هولدا أن ترى أبي الملك، ومقدار وسامته وجمال ثيابه التي كانت تتوهّج بالذهب والماس. كان وجهه شبيهاً بوجه والد «بن»، الاّ أنه كان أكثر وسامة وجمالاً. من المؤسف أن العمّة هولدا لم تكن هناك لترى أبي، وإلاّ لعرفت أن أبي ليس انساناً تافهاً لاخير فيه.

الاّ أن العمّة هولدا كانت مُحقّة حين قالت إن أمّي قد ماتت وقت ولادتي. تصوّروا غباء الناسَ في مأوى الأطفال، إذ لم يخطر في أذهانهم أن يخبروا أبي الملك بمكاني! لقد لَبِث تسع سنين يبحث عني. آه، ما أسعدني الآن بالعودة إلى بيتي أخيراً!

لقد مضى عليّ الآن هنا وقت طويل. ما أمتع الحياة هنا. فوالدي الملك يأتي إلى غرفتي كل مساء فنتحدث ونبني نماذج الطائرات معاً.

إنني أنمو وأكبر بسرعة هنا في فاراوايلاند. ويضع والدي الملك علامات على باب المطبخ كل شهر تظهر الطول الذي وصلت إليه.

في كل مرّة يقيس فيها طولي يقول: «ولدي ميو! ماشاء اللّه! انظر كم زاد طولك!» كان يقول ذلك بنبرة جميلة حميمة. إذن، لم يكن اسمي الحقيقي «اندي» أبداً.

قال أبي الملك: «لقد أمضيت تسع سنين وأنا أبحث عنك.

ولطالما كنت أتمدد مستيقظاً في الليل على السرير وأناديك: «آه يا ولدي ميو.» هذا هو اسمك وأنا أدرى الناس به. أليس كذلك؟»

هكذا إذن. كان الاسم «أندي» خطأً مثل كل الأشياء التي حصلت لي عندما كنت أعيش في شارع نورث. أما الآن فقد عاد كل شيء إلى مكانه الصحيح.

انني أحبُّ ابي الملك، وهو يحبني.

أتمنى لو أُطلع «بن» على كلّ هذا. أعتقد أنني سأكتب له رسالة بهذه المعلومات وأودعها في زجاجة. ثم أغلق الزجاجة بسدّادة فلّين وأقذفها في البحر الأزرق المحيط بفاراوايلاند. لعل أمواج البحر تحملها إلى الشاطيء البعيد حيث يوجد كوخ تمتلكه أسرة «بن» وتستعمله منتجعاً للترويح عن النفس. لعلّ الزجاجة تصل إلى ذلك المكان بينما «بن» يسبح هناك. سوف يكون ذلك أمراً رائعاً. ألا ترون؟ إنني أحب حقاً أن يعرف «بن» كلّ الأشياء الغريبة التي جرت لي. ولعلّه بعد ذلك أن يتصّل بالشرطة ويخبرهم أن كارل اندرز نيلسون، واسمه الحقيقي «ميو»، يعيش في أمان في فاراوايلاند مع والده الملك، وأنه بخير وفي أحسن حال من كلّ الوجوه.

٢ . في حديقة الورود

لا أعرف بالضبط كيف أشرح الأمور لـ «بن». فالذي حدث لي لايشبه أي شيء ممايحدث للآخرين. لَاأعرف كيف أشرح الأمر بطريقة يفهمها «بن» ويستوعبها استيعاباً تاماً. حاولت جاهداً أن أجد كلمة مناسبة معبّرة، ولكني لم أجد. هل أقول: «أمر *هائل* حدث لي؟» ولكنّ هذا لن يقدّم صورة وافية عن الوضع هنا في فاراوايلاند. أحتاج الى أن أرسل إليه اثنتي عشرة قنّينة على الأقلّ لكي أحدّثه بصورة وافية عن والدي الملك، وعن حديقة الورود، وعن «*بامبو*» و «*ميراميس*»، وعن السير كاتو في «*الأرض القصّية*». لا، لا أستطيع أن أخبره بكل ماحدث معي.

في اليوم الأوّل بعد وصولي أخذني والدي الملك إلى حديقة الورود. كان الوقت مساءً وكانت الريح تلعب بأغصان الشجر. وبينما كنا نسير نحو الحديقة سمعت موسيقى غريبة، كأن آلافاً من الأجراس الزجاجية تقرع في الوقت نفسه. كانت الموسيقى خافتة، ولكنها كانت واضحة تماماً، وقد جعلتني أهتز قليلاً.

قال أبي الملك: «هل تسمع الأصوات الموسيقيّة المنبعثة من أغصان شجر الحور الفضيّ؟»

أمسك بيدي بينما كنا نمشي. لا أذكر أن العمّة هولدا والعم

أولاف قد أمسكا بيدي يوماً. لا أحد فعل ذلك معي سابقاً. لهذا السبب أحب أن أمشي مع أبي الملك ويدي في يده، على الرغم من أنني في الحقيقة كبير على مثل هذا التصرّف.

كان ثمّة سور عال يحيط بحديقة الورود. فتح والدي الملك باباً في السور ودلفنا إلى الداخل.

في يوم ما من الماضي البعيد رافقت «بن» إلى كوخهم القائم على شاطيء البحر. وهناك جلسنا على حافة جرف صخري وطيء يشرف على الماء وأخذنا نصطاد السمك بالصنّارة، بينما كانت الشمس تهبط نحو المغيب. كان ذلك الوقت من العام هو الوقت الذي تزْهرُ فيه أشجار الورد، وكان الكثير منها قد نما إلى جانب الجرف الصخريّ. وبعيداً على الجانب الآخر من الخليج كان هناك طائر «وقواق» يزعق بصوت عال. عندئذ حدّثت نفسي قائلاً: «لاأظنّ أنه يوجد في الكون ماهو أجمل منً هذا المكان.» بطبيعة الحال لم يكن باستطاعتي أن أرى طائر الوقواق لأنه كان شديد البعد عنّي. ولكن زعيقه أضاف إلى الموقف كلّه جمالاً على جمال، وروعة على روعة. لم أعبّر لـ «بن» عن شعوري في ذلك الوقت، ولكنني بقيت أحدث نفسي: «أنا متأكد أنه لايوجد في الدنيا شيء أجمل من هذا.»

كان ذلك قبل أن أرى حديقة والدي الملك. لم أكن بعد قد رأيت هذه المساحات المتموّجة من الورود البديعة، ولا أزهار اللّيلك البيضاء تهتز من أثر النسيم، ولا أشجار الحَوْر ذات الأوراق



الفضيّة، تتسامق عالية عالية نحو السماء حتى آن النجوم تلتمع في ذراها عندما يهبط المساء. لم أكن بعد قد رأيت هذه العصافير البيضاء التي تطير عبر الحديقة، ولا سمعت غناءً أو لحناً موسيقياً كهذا الذي ترسله أوراق الحور الفضيّة. لم يَرَ أحد ولم يسمع شيئاً كالذي رأيت وسمعت في حديقة والدي الملك. وقفت هناك وشددت على يد والدي. كنت أريد التأكد من أنه معي هناك، إذ

إن روعة المشهد الباهر أكبر من أن يَحْتَمِلَها شخص بمفرده. ربّت والدي الملك على خدّي وقال: «ميو، ياولدي! هل تعجبك حديقتي؟»

لم أستطع الإجابة. شعرت بأنني على وشك البكاء، ومع ذلك فلم أكن حزيناً، إنما كنت شديد السعادة.

أردت أن أخبر والدي الملك بأن مايظهر عليّ لايدلّ على الحزن. ولكن قبل أن أفوه بكلمة تحدث قائلاً: «يسرّني أنك سعيد، أريدك أن تكون سعيداً دائماً ياميو، يا ولدي الحبيب!»

ثم سار مبتعداً ليحادث الجنائني الذي كان ينتظره. أما أنا فمضيت وحدي أستَطْلِع المكان. بدا كل شيء رائعاً بصورة باهرة شعرت معها بنشوة غامرة. شعرت بنشاط خاصّ يدبّ في ساقيّ وبقوّة عارمة في ذراعيّ. وانتابني شوق كبير إلى «بن» وتمنيت لو كان معي هنا لكي أتعارك معه على سبيل المزاح والدعابة طبعاً. آه لكم اشتقت إلى «بن»! كنت في حاجة إلى شخص في مثل سنّي لكي يشاركني كلّ هذه البهجة. ولكن «بن» المسكين بعيد جداً، ولعله الآن يحوم في ذلك المُتَنَزَّهِ القاتم، ولعلّ الجو هناك ماطر مع رياح شديدة كالعادة. إنه الآن يعرف مؤكداً أنني اختفيت تماماً، ولعله يتساءل إلى أين ذهبت وهل سيراني من جديد يوماً ما؟ مسكين «بن»! لطالما قضينا معاً أوقاتاً ممتعة، بن وأنا! وبينما كنت أتابع المشي في حديقة والدي الملك بدأت أفتقد «بن» وتضاعف شوقي إليه. لم يكن ثمّة ما أفتقده من حياتي القديمة غير «بن». لا،

لم يكن ثمّة شخص آخر ـ آه، نعم لعلي أضيف إليه السيّدة لوندي، فقد كانت دائماً طيبة ولطيفة معي. بدأت أمشي ببطء في أحد الطرق الضيّقة مثبّتاً عينيّ على الأرض، وبدأت أشعر بالوحدة. وبدا أن النشوة السابقة قد تلاشت في داخلي. ثم رفعت رأسي. وهنا رأيت أمامي على الطريق صبيّاً حسبته «بن» لأوّل وهلة. ولكنه لم يكن «بن». بل كان «بامبو». بالطبع لم أكن أعرف في تلك اللحظة أن اسمه «بامبو». كان له مثل شعر «بن» الداكن



تماماً، وعينان بنيّتان كعينيْ «بن».

سألته: «ما اسمك؟»

أجاب: «بامبو»

وهنا تبيّنت أنه يختلف بعض الشيء عن «بن». فقد بدا أكثر رزانة ولطفاً من «بن». «بن» لطيف أيضاً بالطبع. إنه مثلي: أحياناً يكون لطيفاً وأحياناً يكون غير ذلك. كان يحدث أن نختلف أحياناً ونتغاضب ونتخاصم. ولكن ذلك لم يكن يستمر طويلاً.



فسرعان ما نتصافى ونعود إلى صداقتنا الحميمة. أمّا «بامبو» هذا فلا أتصور أن أحداً يمكن أن يتخاصم معه. فقد كان أرق وألطف من أن يُغْضِبَ أحداً.

قلت لهَ: «ألا تريد أن تعرف اسمي؟ أنا أندي ـ آه لا، نسيت. أنا ميو.»

قال بامبو: «أعرف. لقد بعث مولانا الملك منادين إلى جميع أنحاء المملكة يعلنون أن ميو قد عاد.»

تخيّلوا! لقد بلغ من سعادة والدي الملك بعودتي أنه أراد أن يخبر الجميع.

سألت: «هل لك أبٌ يا بامبو؟»

أملت أن يكون جوابه بـ «نعم». ذلك أني جرّبت مرارة الحرمان من الأب طويلاً وأعرف مالذي يعنيه ذلك.

أجاب بامبو: «بالطبع لي أب. أبي هو جنائني الملك. هل تحب أن تأتي لتشاهد المكان الذي أعيش فيه؟»

أجبت: «نعم، أحب ذلك كثيراً.»

هرول أمامي على الطريق الضيق إلى أقصى ركن في حديقة الورود. كان هناك كوخ صغير أبيض مسقوف بالقش. كان من نوع الأكواخ التي نقرأ عنها في الحكايات الخياليّة. كان معظم الكوخ مكسوّاً بالورود التي نمت على جدرانه وسقفه، حتى كان من الصعب عليّ أن أرى شيئاً من أصل الكوخ نفسه. كانت النوافذ مشرعة، والطيور البيضاء تطير داخلة وخارجة منها على هواها.

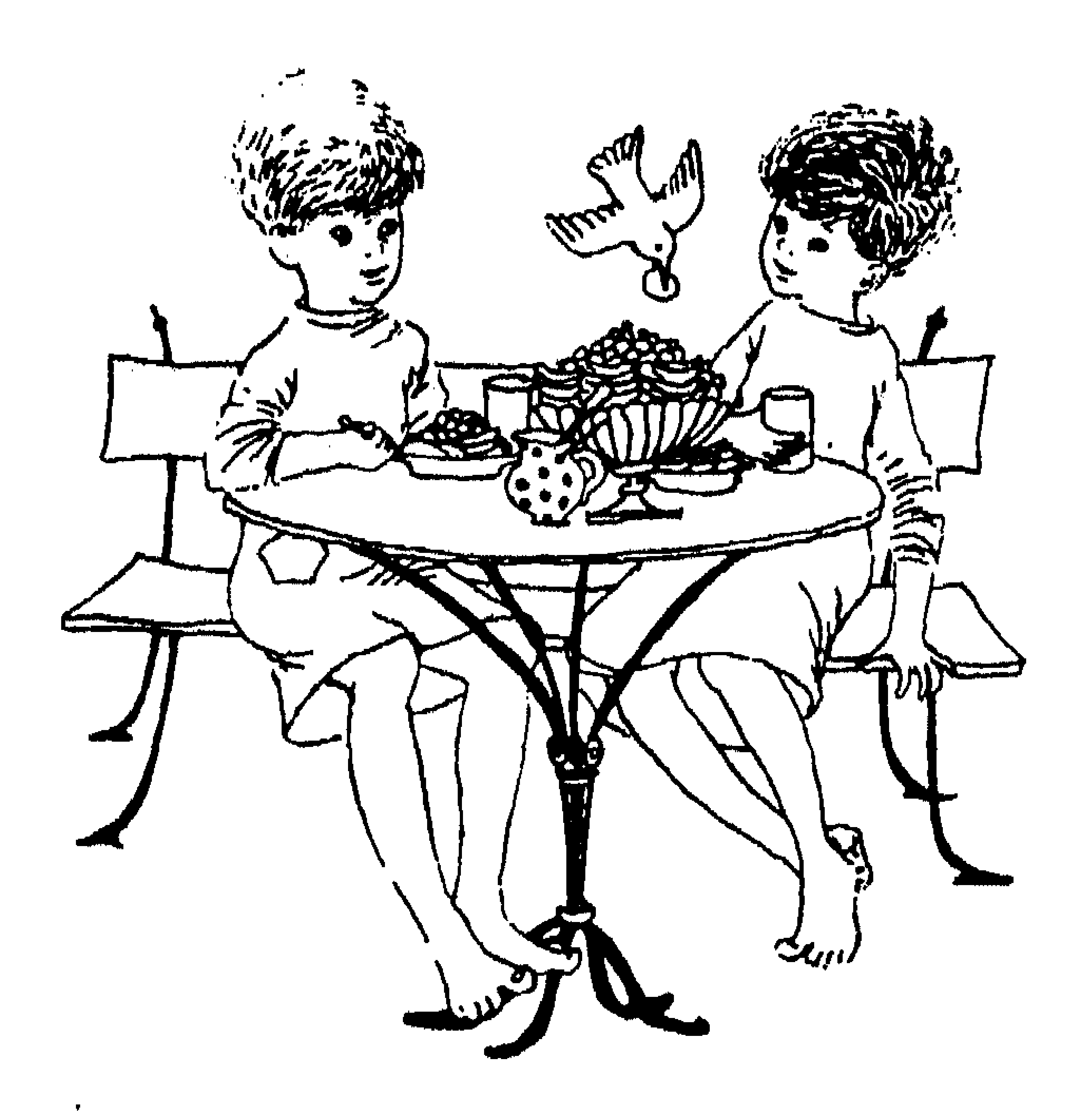


وكان ثمّة مقعد وطاولة في الخارج بالقرب من الحائط. وكان النحل المنطلق في صف طويل من خلايا النحل يطنّ بين الورود. وكان الكوخ محاطاً بأحواض الورود من كل ناحية، وكان هناك كذلك الكثير من أشجارِ الحَوْر ذات الأوراق الفضيّة.

سمعت صوتاً يأتي من المطبخ: «هل نسيت عشاءك يا بامبو؟»

كان ذلك صوت أم بامبو. وما لبثت أن برزت من الباب ووقفت تضحك. ولحظت أنها شديدة الشبه بالسيّدة لوندي، إلاّ

أنها أجمل قليلاً. كان لها نفس الغمّازتين في خدّيها المدوّرين، وربّتت على خدّي بنفس الطريقة التي ربّتت فيها السيّدة لوندي على خدّي حين قالت: «وداعاً يا كارل أندرز نيلسون، وداعاً.»
قالت أم بامبو: «كيف حالك يا ميو؟ كيف أنت؟ هل تحب أن تتناول العشاء مع بامبو؟»
أجبت قائلاً: «نعم، من *فضلك*. إذا لم يكن في ذلك أي إزعاج.»
قالت إنه ليس هناك أي إزعاج. وهكذا جلست وبامبو أمام طاولة الحديقة، وجاءتنا أمّه بطبق كبير من الفطائر و«مرطبان» من مربّى الفراولة ووعاء من القشدة الكثيفة. أكلنا بشراهة عجيبة حتى شعرنا بأن بطنَيْنا على وشك الانفجار، ثم نظر أحدنا إلى الآخر وانطلقنا في الضحك. شعرت بسعادة غامرة لوجود بامبو هناك. ومرّ أحد الطيور البيضاء قريباً مني والتقط من صحني قطعة من فطيرة. فاسترسلنا في مزيد من الضحك!
ثم رأيت والدي الملك قادماً نحونا مع الجنائني والد بامبو. فجأة شعرت بشيء من التخوّف. فقد خشيت أن يعارض والدي جلوسي هناك وتناولي الطعام مع بامبو وضحكي بصوت مرتفع. نعم، عرفت أنه رجل طيب وأنه يحبّني كثيراً. ولكن لم أكن أتصوّر بأنه على ذلك القدر الهائل من الطيبة والمحبة لي والرغبة في أن يراني ضاحكاً. فقد توقف والدي الملك حين رآني وقال: «ميو، ياولدي. إنك تضحك!»



قلت: «أنا آسف.» ذلك أنني ظننت أنه لايحب القهقهة والضحك المرتفع كما كانت العمّة هولدا والعمّ أولاف.

ولكنه قال: «تابع الضحك! كن ضاحكاً أبداً!» ثم استدار إلى الجنائني وقال: «انني احب غناء الطيور، وأحب موسيقى شجر الحور الفضيّ، ولكن أكثر ما أحب هو أن أسمع صوت ضحكة ابني في «حديقة الورود».»

عندئذٍ عرفت لأوّل مرّة أني لا أحتاج أن أخاف والدي في أي وقت من الأوقات. فمهما فعلت، فسوف ينظر اليّ دائماً بنفس العينين الطيبتين كما يفعل الآن. كان أبي يقف هناك وقد وضع يده على كتف الجنائني بينما كانت جميع الطيور البيضاء تحوم من

حوله. وحين سمِعْتُ أبي يقول ذلك الكلام وتبيّن لي معناه شعرت بسعادة لم أشعر بمثلها في حياتي. فرجعْتُ برأسي الى الخلف وأطلقت ضحكة مدوّية كادت الطيور تفرّ منها بعيداً! ظنّ بامبو أني مازلت أضحك من ذلك الطائر الذي خطف قطعة الفطيرة مني، فاسترسل في الضحك من جديد. وكذلك فعل والدي الملك، ووالد بامبو وأمّه. كلهم انطلق في الضحك. لم أدر ما الذي كان يضحكهم. كل ما أعرف أنني كنت أضحك لأسعد والدي الملك.

ثم انطلقت مع بامبو عبر الحديقة حيث أخذنا نتشقلب على العشب، ولعبنا لعبة «التخفّي والبحث» بين شجيرات الورد. كان هناك الكثير من المخابيء المناسبة! لو وجد عُشْر ذلك فقط في المُتَنَزَّه البعيد لطرنا فرحاً، «بن» وأنا. أعني لطار «بن» فرحاً. فأنا والحمد للّه لن أضطر أبداً الى البحث عن أماكن للتخفّي في ذلك المُتَنَزَّه!

اشتدت العتمة. وامتد ضباب رقيق أزرق فوق حديقة الورود. صمتت الطيور البيضاء وآوت الى أعشاشها. وسكتت أشجار الحور الفضيّة كذلك. وعمّ الهدوء التام جميع أنحاء الحديقة، إلاّ من طائر أسود ضخم كان يغني وحيداً على رأس أعلى شجرة من أشجار الحَوْر. غنى بصوت عذب جميل، أعذب من أصوات الطيور البيضاء مجتمعةً. بدا كأنه يغنّي لي وحدي فقط. ومع ذلك لم أرغب في سماعه، لأن شيئاً ما في غنائه أوجعني.

قال بامبو: «لقد تأخر الوقت. يجب أن أعود الى بيتي.»

رجوته قائلاً: «أرجوك. لاتذهب. لا أريد البقاء وحيداً مع

ذلك الغناء الغريب.»

ثم أشرت إلى ذلك الطائر الأسود وسألت بامبو عن اسمه.

قال بامبو: «لا أعرف. إنني اسمّيه طائر الأسى، لاشيء إلاّ لأنه أسود اللون. أما اسمه الحقيقي فقد يكون مختلفاً.»

قلت: «لا أظن أني أحبه.»

قال بامبو: «*أنا* أحبّه. ان له عينين طيبّتين وادعتَيْن. طابت ليلتك يا ميو. إلى اللقاء!» قال ذلك وانطلق مبتعدا.

ثم تنبّهت إلى أن والدي الملك يقف إلى جانبي. أخذ يدي بيده وسرنا معا نحو البيت عبر حديقة الورود. تابع طائر الأسى غناءَه. ولكن، بوجود أبي إلى جانبي الآن، لم يعد غناؤه يجرحني. بل تمنّيت أن يتابع الطائر غناءه إلى الأبد.

كان آخر ما رأيته قبل أن نعبر من باب الحديقة طائر الأسى ينشر جناحيه الكبيرين الأسودين ويطير صاعداً نحو السماء.

وهنا رأيت أيضاً أن ثلاث نجوم صغيرة قد بدأت بالوميض.

٣. ميراميس

ترى ماذا يمكن أن يقول «بن» لو رأى حصاني الأبيض ميراميس ذا العرف الذهبي والحوافر الذهبيّة!

أنا و«بن» نحبّ الخيول كثيراً. لم يكن بن والسيّدة لوندي الصديقين الوحيدين لي في شارع نورث. كان لي صديق آخر أيضاً - نسيت أن أذكره لكم. كان اسمه شارلي، وكان حصاناً كبير السن يستعمله صاحبه لجرّ عربة لتوزيع الحليب.

كان صاحبه يمرّ به في شارع نورث في الصباح الباكر عادةً حين أكون في طريقي الى المدرسة. كنت أنتظره لكي أحادثه قليلاً. كان حصاناً وديعاً كبير السّن، وكنت أدّخر له بعض مكعبات السكّر وقطع الخبز الهش. كذلك كان يفعل «بن»، ويشاركني محبة شارلي. كان «بن» يقول: انّ شارلي حصانه هو، بينما كنت أقول: بل هو حصاني أنا وأحياناً كنا نتعارك قليلاً من أجله. ولكن، عندما كنت أنفرد بشارلي كنت أهمس في أذنه: «أنت حصاني. أليس كذلك؟» وكان يبدو أن شارلي يفهمني ويوافقني. ألا ترون؟ ان لـ «بن» أما وأبا وكل شيء. لم يكن في حاجة الى حصان مثل حاجتي

إليه، لأني كنت وحيداً. ولذلك شعرت أن العدل والإنصاف يقضيان أن يكون شارلي لي أكثر مماهو لـ «بن». بالطبع لم يكن شارلي مُلْكي أو مُلْك «بن» في الحقيقة، بل كان مُلْكاً لموزّع الحليب. إنما كنا نتظاهر بأنه مُلْكنا. ومن جهتي بذلت جهداً كبيراً في التظاهر حتى كدت أصدّق ذلك.

أحياناً كنت أطيل الحديث مع شارلي حتى أتأخر عن المدرسة، وحين كانت المعلّمة تواجهني بالسؤال عن السبب، لم أكن أعرف بماذا أجيب. ليس من السهل أن تُخبِرَ المعلّمة أنك تأخرت عن المدرسة لأنك انشغلت بمحادثة حصان عجوز!

في بعض الأيام كانت عربة الحليب تتأخر في الوصول، فأضطر إلى الإسراع إلى المدرسة قبل أن أرى شارلي. وكان هذا يزعجني كثيراً ويجعلني غاضباً على صاحب العربة. كنت أجلس على مقعدي في الصف، وأتحسس قطع السكّر والخبز في جيبي، وأفكّر بشارلي خاشياً ألاّ أراه قبل مرور أيام. وقد تتنبّه المعلّمة لشرودي فتسأل: «لماذا تتنهّد يا أندي؟ هل ثمّة مايؤلمك؟»

لم يكن في وسعي أن أجيبها. فكيف يمكن لي أن أجعلها تتفهّم مدى محبتي لشارلي؟ أحسب أن الحصان صار لـ «بن» وحده الآن. أنا سعيد أن لديه «شارلي» ليستمتع بصحبته بعد أن فارقتُ ذلك المكان.

أمّا أنا فلديّ ميراميس ذو العرف الذهبيّ. وسأقصّ عليكم كيف حصلت عليه: في إحدى الأماسي، بينما كنت مع والدي الملك

نبني نماذج الطائرات ونتبادل الحديث (كما يفعل «بن» ووالده) حدّثت والدي الملك عن شارلي.

قال والدي الملك: «ميو، ياولدي! هل تحبّ الخيول؟»

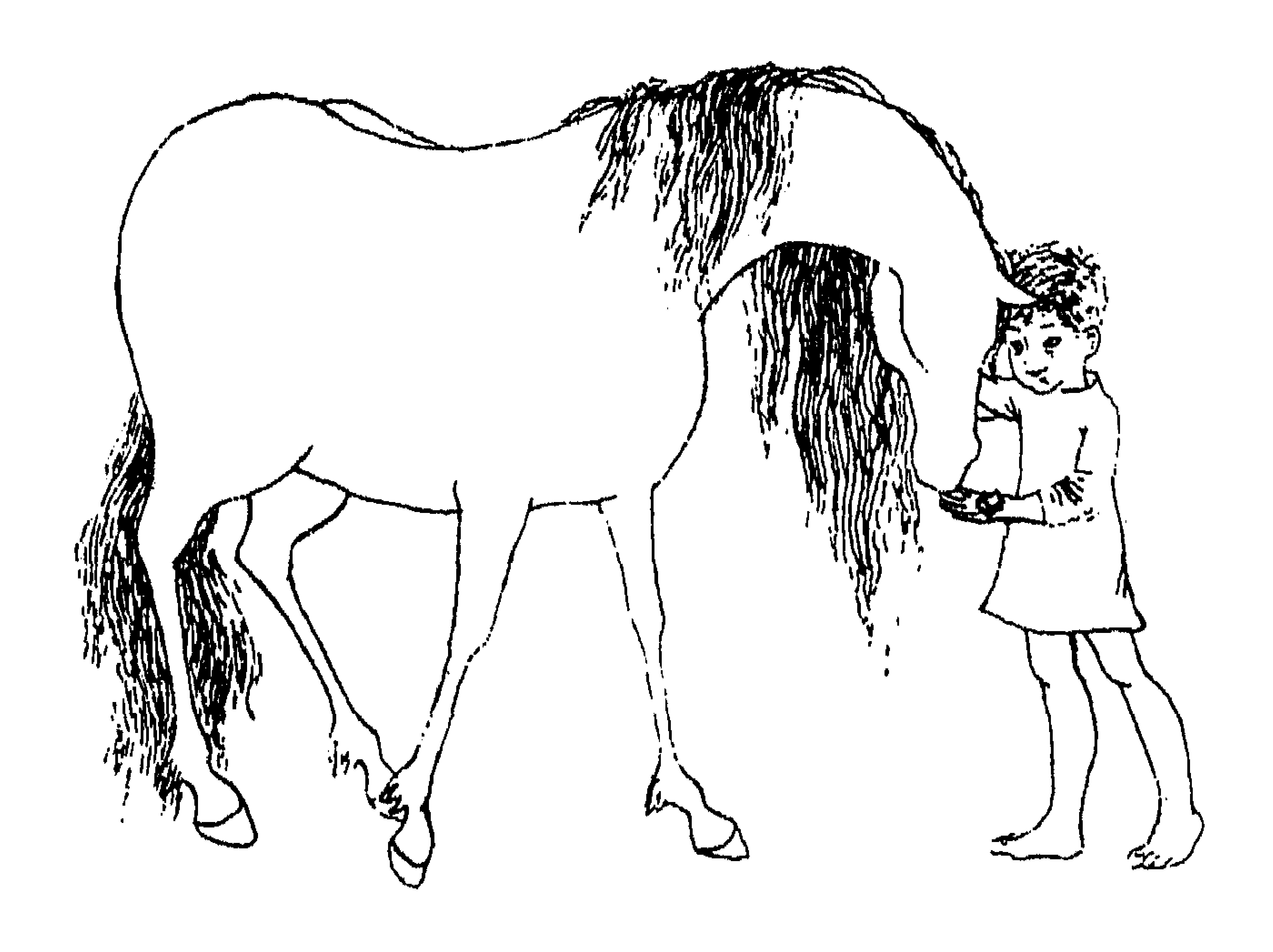
أجبت: «نعم. أحبها بقدر لا بأس به.»

لعلّ نبرة جوابي قد دلّت على أنني لست مغرماً بالخيول غراماً كبيراً. لقد تعمّدت ذلك كيلا يظنّ أبي أنني أتمنّى الآن أيّ شيء آخر غير صحبته.

عندما ذهبت إلى حديقة الورود في اليوم التالي رأيت حصاناً أبيض يعدو مقبلاً نحوي. لم أرَ في حياتي حصاناً يعدو بتلك الطريقة. كان عرفه الذهبي يتموّج، وحوافره الذهبيّة تلمع في وضح النهار. أقبل نحوي يتخطّر في عدوه، ويطفر ويثب مرحاً، ويرفع قائمتيه الأماميتين مرتكزاً على قائمتيه الخلفيّتين، ويصهل صهيلاً مدوّياً لم أسمع مثله من قبل. انتابني بعض الخوف منه، وتشبّثت بوالدي الملك. الاّ أن والدي الملك أمسك بعرف الحصان الذهبي بيده القويّه، فسكن الحصان فوراً ودسّ مقدّمة رأسه في جيبي بحثا عن قطع السكّر كما كان يفعل شارلي. والغريب أنه كان هناك قطعة سكر فعلاً في جيبي. لعلي قد وضعتها هناك بدون تفكير. وهكذا وجدها الحصان وراح يطحنها بأسنانه.

قال والدي الملك: «ميو، ياولدي. هذا حصانك، واسمه ميراميس.»

ميراميس لي... وحدي! أحببته منذ البداية واعتقدت أنه أجمل



حصانٍ في العالم. انه يختلف عن شارلي المسكين الذي كان عجوزا ومتعباً. لا، لم أرَ أي شبه بينه وبين شارلي. على الأقل في النظره الأولى. ولكن حين رفع رأسه الجميل ونظر إليّ لاحظت أن له مثل عَيْني شارلي الطّيبتين الوديعتين، مع تلك النظرة الوفيّة المخلصة التي تتّصف بها الخيول.

لم أمتط في حياتي حصاناً من قبل، حتى رفعني والدي الملك ووضعني على صهوة ميراميس.

قلت متردداً: «قد لا أجرؤ على امتطائه والعدو به.»

قال والدي الملك: «ميو، ياولدي. إنك شجاع. لاتخش شيئاً.»

عندئذ أمسكت بزمامه وقدته عبر حديقة الورود تحت أشجار الحور التي كانت أوراقها الفضيّة تسقط على شعري. ثم أخذت أعدو به بسرعة متزايدة. وتمكن ميراميس من القفز عن أعلى أسيجة الورود بسهولة ورشاقة. لم تلمس حوافره إلاّ سياجاً واحداً فتطاير منه رشاس من تيجان الورود.

ثم جاء بامبو ورآني على صهوة الحصان. صفق بيديه وصاح: «ميو يمتطي ميراميس! ميو يمتطي ميراميس!»

جذبت زمام الحصان لأوقفه، وسألت بامبو عما إذا كان يرغب في امتطائه معي. بالطبع كان راغباً. وهكذا أردفته خلفي بسرعة، وانطلقنا معاً بالحصان عبر المروج الخضراء خارج حديقة الورود. كان ذلك أمتع ما مرّ بي في حياتي.

والدي هو ملك فاراوايلاند، وهي أكبر الممالك جميعاً. فهي تمتد شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. أما الجزيرة التي أقام عليها والدي الملك قصره فتدعى «جزيرة الحقول الخضراء.» إلاّ أنها لاتمثّل غير جزء صغير من فاراوايلاند.

بينما كنا نقود الحصان عبر المروج الخضراء خارج حديقة الورود قال بامبو: «ان الأرض التي تقع في الجانب الآخر من الماء وخلف الجبال هي أيضاً تعود لمولانا الملك.»

تذكرت «بن» بينما كنا ننطلق بسرعة تحت أشعة الشمس



الجميلة. مسكين «بن»! لعله يقف في هذه اللحظة تحت رذاذ المطر وفي عتمة شارع نورث، بينما أتمّتع أنا بركوب حصاني هنا في «جزيرة الحقول الخضراء.»

بدا كل شيء جميلاً رائعاً. فالعشب أخضر وطريّ، والزهور

اللامعة البديعة تنتشر في كل مكان، والجداول الصافية تسقط عن المنحدرات الخضراء، والحملان الصغيرة البيضاء ترعى العشب في الحقول.

قابلنا صبياً راعياً يعزف بمزمار خشبي. كان يعزف مقطوعة غريبة بدا لي أني سمعتها من قبل، ولكني لم أستطع التذكر. من المؤكد أني لم أسمعها في شارع نورث حيث كنت أعيش. على الأقل كنت متأكداً من هذا.

توقفنا وتحدثنا مع الصبيّ الراعِي. كان اسمه «نومو». سألت أن أستعيرَ مزماره لوقت قصير. أَذِنَ لي وعلّمني كيف أعزف.

ثم قال: «سأصنع لكما مِزمارين مثله إن أحببتما.»

عبّرنا له عن رغبتنا الشديدة في ذلك.

كان هناك جدول قريب تتدلّى عليه أغصان شجرة من أشجار الصفصاف. ركض نومو الى الشجرة وقطع منها غصناً. جلسنا جميعاً على حافة الجدول وأدلينا أقدامنا في الماء بينما انشغل نومو بصنع المزمارين لنا. وفي هذه الأثناء تعلّم بامبو كيف يعزف ذلك اللحن الغريب. أخبَرنا نومو أنه لحن قديم جداً يسبق في قدمه جميع الألحان الأخرى، وأن الرعاة مازالوا يعزفونه في المراعي منذ آلاف السنين.

شكرناه على المزمارين اللذين صنعهما لنا وعلى تعليمنا ذلك اللحن القديم. ثم عدنا إلى امتطاء ميراميس وانطلقنا به من جديد. وبينما كنا نبتعد كان نومو يعزف المقطوعة الغريبة.



قلت لبامبو: «يجب أن نعتني بمزمارينا ونحافظ عليهما. وإذا اتفق أن أضاع أحدنا الآخر يوماً فإن علينا أن نعزف تلك المقطوعة.»

كان بامبو يطوقني بذراعيه كيلا يسقط عن صهوة الحصان ورأسه يلتصق بظهري.

وقال: «نعم يا ميو. يجب أن نحافظ على مزمارينا بكل مانستطيع. فإذا سمعت صوت مزماري فاعلم أنني أناديك.»

قلت: «نعم. وإذا سمعت صوت مزماري فاعلم أيضاً أنني أناديك.»

قال بامبو بصوت مفعم بالحنان: «نعم.» عندئذ أحسست أنه أعزّ أصدقائي، طبعاً باستثناء والدي الملك الذي أحبه أكثر من أي إنسان آخر في العا لم. إلاّ أن بامبو صبي مثلي. والآن بعد أن فقدت صديقي «بن» صار بامبو أعز الأصدقاء.

تخيّلوا! عندي والدي الملك، وصديقي بامبو، وحصاني ميراميس، وها أنذا أعدو به فوق التلال والحقول الخضراء مسابقاً به الريح! هل ثمّة غرابة بعد ذلك في أن أكون شديد السعادة!

سألت بامبو: «كيف يمكن الوصول إلى أرض الجانب الآخر من الماء وما خلف الجبال؟»

أجاب: «تعبر جسراً اسمه «جسر نور الصباح.»

قلت: «جسر نور الصباح!» أين ذاك؟»

قال: «سترى في دقيقة.» وكان محقاً. كان الجسر عالياً وطويلاً

جدّاً حتى أنني لم أستطع رؤية آخره. كان يتلألأ في ضوء الصباح وبدا كأنه مصنوع من أشعة ذهبيّة.

قال بامبو: «إنه أطول جسر في العالم. ويصل بين جزيرة الحقول الخضراء وأرض الجانب الآخر من الماء. ولكن مولانا الملك يأمر برفع الجسر في أثناء الليل لكي ننام بأمان في جزيرة الحقول الخضراء.»

سألت: «لماذا؟ من يمكن أن يأتي في الليل؟»

أجاب بامبو: «السير كاتو.»

في اللحظة التي نطق فيها الاسم سرت قشعريرة في بدني وبدأ ميراميس يرتجف.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أسمع فيها اسم السير كاتو. قلت: «السير كاتو؟» وارتجف جسمي من جديد لمجرّد نطق الاسم.

قال بامبو: «نعم. السير كاتو القاسي.» وهنا أطلق ميراميس صهيلاً أشبه بالصراخ، فتوقفنا عن الحديث عن السير كاتو.

أحببت أن أعبر جسر نور الصباح. ولكن كان عليّ أن أستاذن والدي الملك أوّلاً. وهكذا عدنا إلى حديقة الورود وتوقفنا عن الركوب بقيّة النهار. بدلاً من ذلك قمنا بتنظيف ميراميس وتمشيط عرفه الذهبي وغرّته. ربّتنا على جسمه وأطعمناه قطعاً من السكّر والخبز أعطتنا إياها أمّ بامبو.

بعد ذلك عملنا معاً على بناء كوخ صغير لنا في حديقة الورود.

وحين فرغنا من ذلك جلسنا فيه وتناولنا بعض الفطائر المرشوشة بالسكر الناعم. إنني أحب الفطائر أكثر من أي طعام آخر. اعتادت أمّ «بن» على صُنعها، وكانت تعطيني واحدة منها في بعض الأحيان. ولكن الفطائر التي تصنعها أمّ بامبو ألذ بكثير.

كان بناء الكوخ عملاً ممتعاً للغاية. فلطالما كنت أرغب في بناء كوخ مثله. كان «بن» يحدّثني عن الأكواخ التي يبنيها على شاطيء البحر، أتمنّى حقاً لو كان باستطاعتي أن أكتب إليه وأخبره بكوخي. أتمنّى لو أكتب إليه:
«تعال وانظر إلى كوخي! تعال واشهد روعة الكوخ الذي بنيته هنا في فاراوايلاند!»



٤ . هل تعبأ النجوم إذا عَزَفْتَ لها؟

في اليوم التالي ركبنا الحصان عائدَيْن الى مكان نومو. لم نجده هناك أوّل الأمر، ولكنا مالبثنا أن سمعنا صوت مزماره قادماً من وراء تلّة صغيرة. كان يجلس هناك يعزف لنفسه بينما كانت الأغنام ترعى العشب. حين أَبْصَرَ بنا وضع مزماره على الأرض وضحك قائلا: «آه، ها أنتما من جديد!»

كان من الواضح أنه سعيد بقدومنا من جديد. أخرجنا مزمارَيْنا وأخذنا نعزف معا نحن الثلاثة. كانت الألحان جميلة، وعجبت كيف نستطيع أن نعْزفَ مثل تلك الألحان العذبة.

قلت: «من المؤسف أنه لايوجد أحد غيرنا لكي يستمع إلى عزفنا ويعرف مدى مهارتنا.»

قال نومو: «الأعشاب تسمعنا، والأزهار والريح. والأشجار أيضاً تستطيع سماعنا، أشجار الصفصاف التي تنحني على الجدول.»

قلت: «حقاً؟ هل يعجبها عزفنا؟»

قال نومو: «نعم. إنها جميعا معجبة بعزفنا كثيراً.»

عزفنا وقتاً طويلاً للعشب والأزهار، والريح والأشجار. ومع ذلك بقيت أشعر بالأسف لأن أحداً من الناس لا يصغي إلى عزفنا.

قال نومو: «إن شئتما ذهبنا إلى جدّتي - جدّتي التي أعيش معها.»

سألت: «هل تسكن بعيداً عن هذا المكان؟»

قال نومو: «نعم، إنها تسكن بعيداً. ولكننا لن نشعر بطول المسافة إذا تابعنا العزف في أثناء المشي.»

قال بامبو: «هذا صحيح. سيبدو الطريق قصيراً إذا تابعنا العزف.» كانت رغبته في الذهاب إلى جدّة نومو مثل رغبتي.

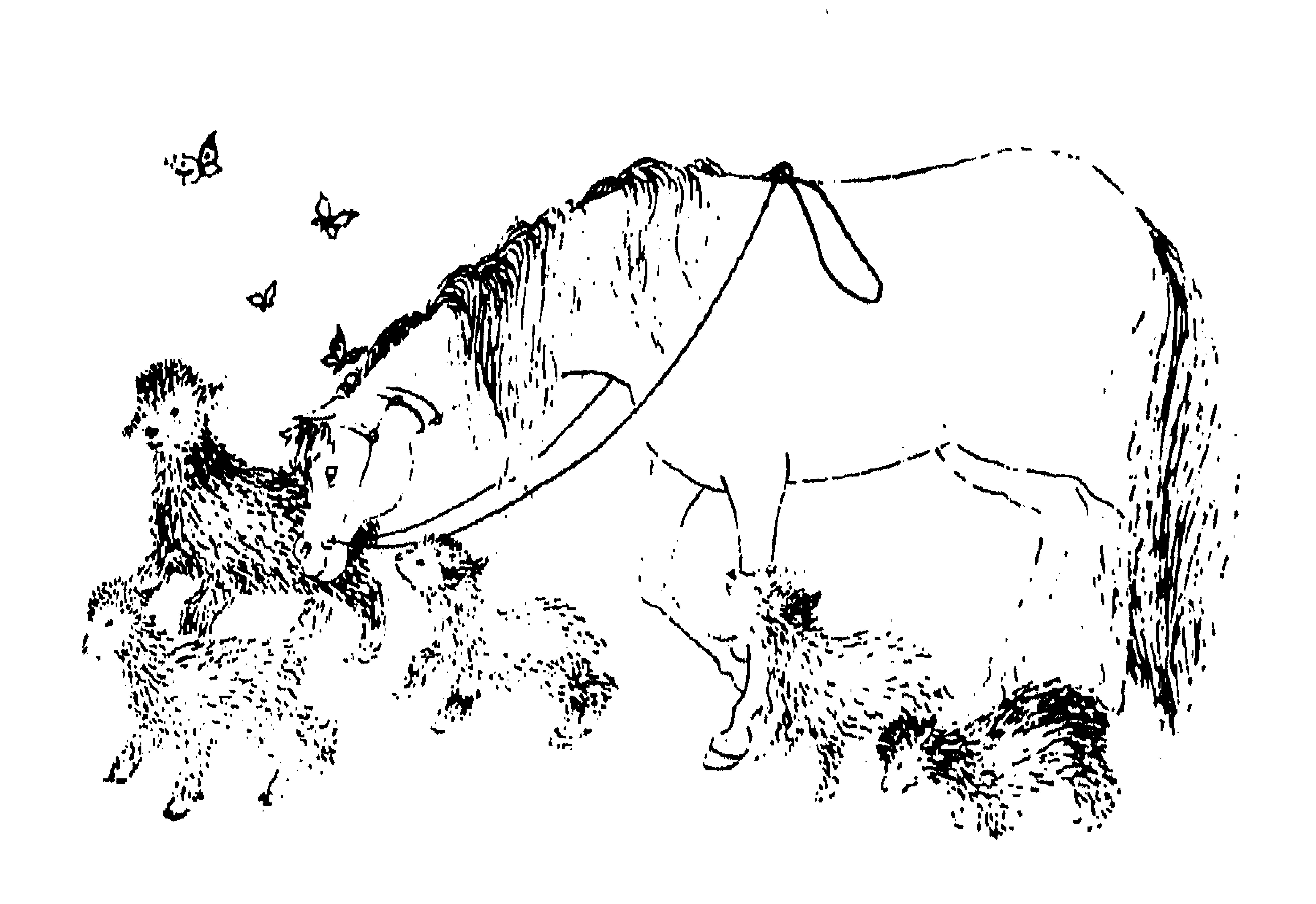
في الحكايات الخيالية هناك دائماً جدّات عجائز طيبات. ولكني



لم أقابل جدّة حيّة حقيقيّة من قبل، على الرغم من معرفتي بوجود الكثير منهنّ. ولذا كنت راغباً أشدّ الرغبة في مقابلة جدّة نومو.

كان علينا أن نسوق معنا غنم نومو إلى جانب ميراميس. كان ميراميس في المؤخّرة يمشي ببطء بطريقة ذكّرتني بشارلي. مشينا على التلال، وكنا نعزف في الطريق. أعتقد أن الحملان كانت تتساءل عن وجهتنا وهدفنا. ولكني أعتقد أنها كانت مبتهجة تستمتع بالوقت، لأنها كانت تثغو وتتقافز من حولنا طوال الوقت.

مشينا لساعات، وصعدنا تلالاً ونزلنا ودياناً، وأخيراً وصلنا إلى



بيت نومو. كانَ كوخاً من النوع الذي نقرأ عنه في الحكايات الخيالية ـ كوخاً صغيراً جميلاً مسقوفاً بالقش ومحاطاً باللّيلك والياسمين.

قال نومو: «لاتقولا شيئاً. نريد أن نفاجيء جدّتي!»

كانت النافذة مفتوحة، وكان بوسعنا أن نسمع صوت أحد في الداخل. وقفنا في صف عند الشباك: نومو أوّلاً ثم بامبو ثم أنا.

قال نومو: «فلنبدأ الآن. واحد، اثنان، ثلاثة!»



وبدأنا فوراً في العَزف معاً. عزفنا لحناً شديد المرح حتى إن الحملان لم تملك إلاّ أن تقفز وترقص لسماعه. أقبلت سيّدة من الداخل إلى النافذة، وبدا وجهها كثير الطيبة. لقد كانت جدّة نومو.

عبّرَت عن إعجابها قائلة: «آه، ما أجمل هذا اللحن!»

عزفنا لها وقتاً طويلاً بينما ظلّت واقفة لدى النافذة تستمع حتى فرغنا. كانت امرأة عجوزاً طاعنةً في السن. وقد يحسب المرءُ لأول وهلة أنها جاءت توّاً من إحدى الحكايات الخيالية. ولكنها كانت جدّة حيّة حقيقيّة.

ثم دخلنا الكوخ. سألتنا جدّة نومو عمّا اذا كنا نشعر بالجوع. قلنا: نعم. وهكذا جاءتنا برغيف من الخبز وقَطَّعَتْهُ شرائح سميكة قدّمتها لنا. كان خبزاً أسمر هشّاً. ولم أذق في حياتي خبزاً ألذّ منه.

قلت لنومو: «آآه. انه لذيذ. مانوع هذا الخبز؟»

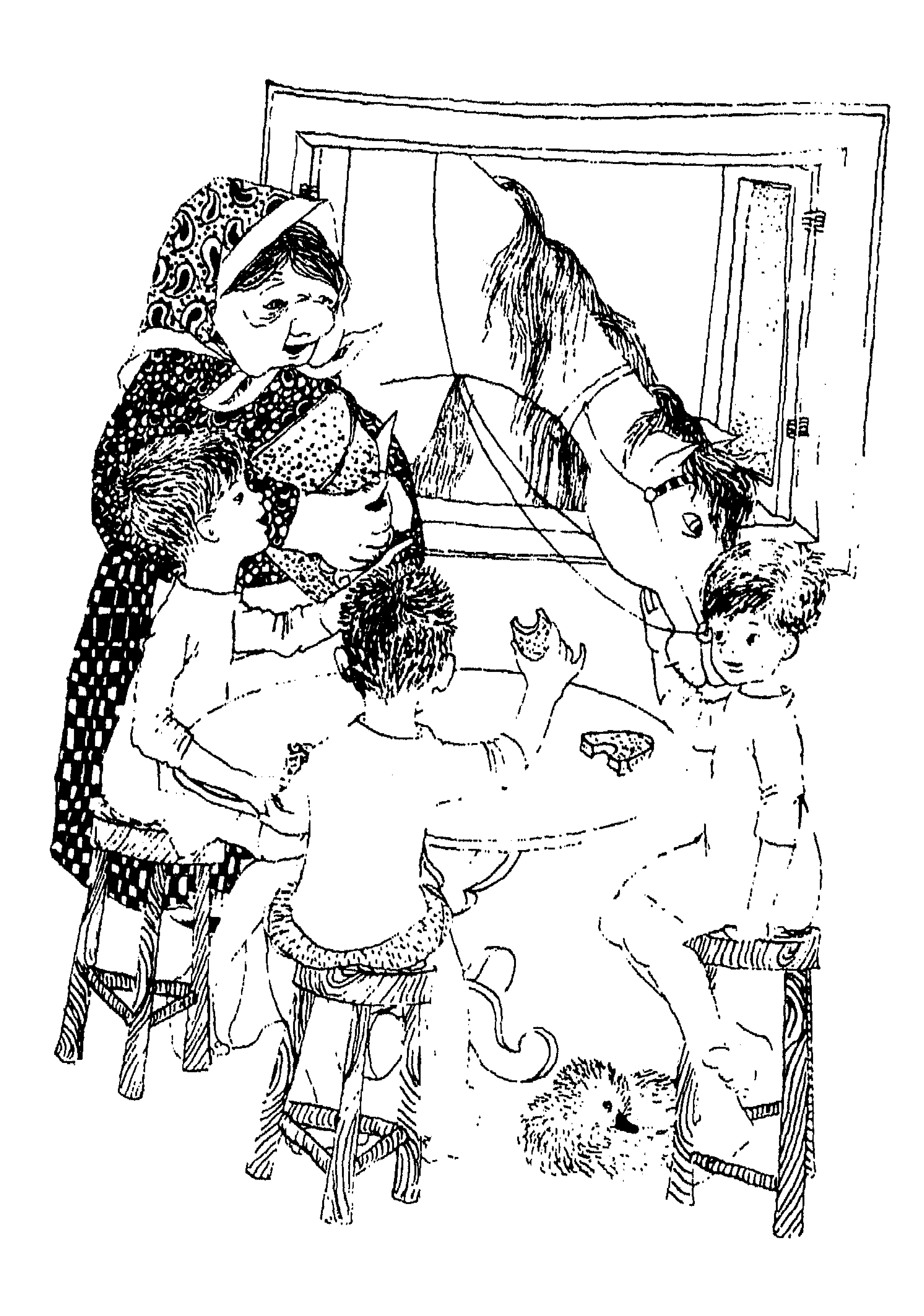
قال نومو: «لا أعلم أنه نوع خاصّ من الخبز. على أننا نسمّيه «الخبز الذي يبدّد الجوع».

كان ميراميس أيضاً راغباً في الأكل معنا. أدخل رأسه من النافذة وصهل قليلاً. ضحكنا منه لأن منظره كان طريفاً. ولكن جدّة نومو ربّتت على أنفه وقدّمت له بعض الخبز اللذيذ.

قلت لنومو إنني عطشان، فقال: «تعالَ معي.»

اصْطَحَبَنا إلى الحديقة حيث توجد بئر صافية الماء. أسقط فيها دلواً خشبياً وسحب بعض الماء الذي شربناه من الدلو مباشرة. كان ماءً بارداً عذباً زلالاً لم أشرب في حياتي مثله.

قلت لنومو: «آآه. إنه عذب جداً. ما نوع هذه البئر؟»
قال نومو: «لا أعلم أنها نوع خاصّ من الآبار. ولكننا نسمّيها «البئر التي تطفيء العطش».
كان ميراميس عطشان أيضاً. كذلك كانت الخراف والحملان. فقدمنا لها بعض الماء.
بعد برهة قصيرة من الزمن، حان الوقت الذي يجب أن يعود فيه نومو مع غنمه إلى المراعي والتلال. ولذا طلب من جدّته الرداء الذي يتدثّر به حين ينام الليلَ في المراعي مع غنمه. أحضرت له رداءً بنيّ اللون وقدمته له. وخطر لي أن نومو صبي محظوظ لأنه يُسمح له بالنوم في المراعي. أما أنا فلم أفعل ذلك أبداً. كان «بن» وأبوه وأمه يخرجون أحياناً على الدّراجات إلى البريّة ويخيّمون هناك. وكانوا يأخذون معهم أكياس النوم وينصبون خيمة في غابة صغيرة لطيفة. كان «بن» يقول إن ذاك أعظم متعة يمكن الحصول عليها. أعتقد أنه محق في ذلك كل الحق.
قلت لنومو: «آه، كم أحب أن أنام في المراعي ليلةً كاملة!»
قال نومو: « لم لا؟ تعال معي!»
قلت: «لا، لن يكون ذلك مناسباً. أخشى أن يقلق عليّ والدي الملك إن لم أرجع إلى البيت.»
قالت جدّة نومو: «أستطيع أن أبلّغ مولانا الملك أنك ستقضي الليلة في المراعي.»
قال بامبو: «وبلّغي والدي عني أنا أيضاً من فضلك!»



طرنا فرحاً، بامبو وأنا، حتى صرنا نقفز ونرقص طرباً أكثر مما تفعل الحملان. ولكنّ جدّة نومو نظرت إلى ثوبينا القصيرين اللذين لم نكن نرتدي غيرهما وقالت: «عندما يسقط الندى سوف تشعران بالبرد.» ثم بدا عليها الحزن فجأة وقالت بصوت هادىء خفيض: «عندي رداءان آخران.»

مشت إلى خزانة قديمة كانت منصوبة في أحد أركان الكوخ وأحضرت رداءين: أحدهما أحمر والآخر أزرق.





قال نومو: «إنهما رداءا أخَوَيّ.» وظهر الحزن على وجهه.
سألت: «أين أخواك؟»
أجاب نومو: «السير كاتو! السير كاتو القاسي أخذهما.»
حين قال ذلك صهل ميراميس في الخارج كأن شخصاً ما قد جلده بالسّوط. وركضت جميع الحملان نحو أمهاتها بقلق واضح، بينما أخذت الأغنام تثغو كأن حتفها قد حان.
أعطتني جدّة نومو الرداء الأحمر، وأعطت بامبو الرداء الأزرق، وأعطت نومو رغيفاً من الخبز الذي يبدّد الجوع وقربة ماء من «البئر التي تطفيء العطش». وهكذا مضينا عائدين عبر التلال في الطريق التي جئنا منها.
جعلني التفكير بأخَويّ نومو أشعر بالحزن. ولكنْ سرعان ما طردت الأفكارَ الحزينةَ من رأسي. إذ إن السماح لي بالنوم في المراعي كان سبباً كافياً للشعور بالبهجة.
حين بلغنا التلّة المجاورة لشجرة الصفصاف المنحنية على الجدول توقفنا، وقال نومو: «علينا أن نخيّم الليلة هنا.»
وهكذا فعلنا. أوقدنا ناراً وجلسنا حولها وأكلنا «الخبز الذي يبدّدُ الجوع» وشربنا من ماء «البئر التي تطفيء العطشٍ». ثم تساقط الندى واشتدّت العتمة. ولكن ذلك كلّه لايهمّ شيئاً، لأن النار الموقدة تمنحنا الضّوء والدّفء.
تدثرنا بالأردية، وتمددنا على مقربةٍ من الموقد. ونامت من حولنا الأغنام والحملان، وبقي ميراميس قريباً منا. استلقينا هناك، وأخذنا

نصغي إلى حفيف العشب تحرّكه الريح، وشاهدنا عن بعد الكثير الكثير من مواقد النار - كان هناك الكثير منها يَلمع في عتمة الليل، لأن «الحقول الخضراء» كانت مليئة بالرعاة. أَصْغَيْنا إليهم من بعد يعزفون ذلك اللّحن القديم نفسه الذي أخبرنا نومو أن الرعاة مازالوا يعزفونه منذ آلاف آلاف السنين. وهكذا مكثنا متمدّدين نراقب النيران الموقدة في كل ناحية، ونصغي إلى اللحن القديم الذي مكث يَعْزفه راعٍ لانعرفه، ولكنه بقي يعزفه لنا طوال الليل. وشعرت بأن المعزوفة تحمل رسالة خاصّة بي.

كانت النجوم تتلألأ في السماء - كانت أكبر نجوم رأيتها في حياتي وأعلاها. استلقيت على ظهري ورحت أُراقبها، وأنا أشعر بالدفء والطمأنينة داخل ردائي الملتف. ثم تذكرت كيف عزفنا للعشب والزهور والريح والشجر، وما قاله نومو عن إعجابها بذلك. ولكنّا لم نعزف للنجوم، هل تعبأ النجوم إذا عزفنا لها؟ هكذا تساءلت. وسألت نومو فقال: «نعم، أعتقد ذلك.» وهكذا اعتدلنا جالسينٍ من جديد حول النار وأخذنا مزاميرنا، وطفقنا نعزف لحناً قصيراً للنجوم.

٥ . البئر التي تهمس في الليل

لم أشاهد الأرض التي تقع على الجانب الآخر من الماء وخَلْفَ الجبال. ولكن، بينما كنت أسير مع والدي الملك يوماً في حديقة الورود طلبت منه أن يسمح لي بالعبور من جسر نور الصباح. توقف والدي الملك وأخذ وجهي بيديه، ونظر إلي نظرة مفعمة بالحبّ والجدّ وقال:

«ميو، يا ولدي! بإمكانك أن تذهب إلى أي مكان تشاء من مملكتي. تستطيع أن تلعب في جزيرة الحقول الخضراء، أو تذهب إلى الأرض التي تقع على الجانب الآخر من الماء وما خلف الجبال. تستطيع الذهاب شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً إلى أقصى مكان يستطيع ميراميس أن يحملك اليه. ولكنّ هناك شيئاً واحداً يجب أن تعرفه. هناك بلد يدعى «الأرض القصيّة.»

سألت: «من يعيش هناك؟»

أجاب والدي وقد اكفهرّ وجهه: «السّير كاتو، السّير كاتو القاسي.»

ما إن نطق الاسم حتى بدا أن شيئاً شرّيراً وخطيراً قد انسلّ إلى حديقة الورود. طارت الطيور البيضاء إلى أعشاشها، وانتفض طائر الأسى زاعقاً وصفّق بجناحيه الكبيرين الأسودين. وفي لحظة واحدة ذبل الكثير من الورود على أعواده ومات.

قال والدي الملك: «ميو، ياولدي! أنت أعزّ شيء عندي. أشعر كأن صخرة كبيرة تحط على صدري كلما فكرّت بالسير كاتو.»

صفرت أشجار الحور الفضيّة كأن ريحاً عاتية قد طوّحت بها. تساقط الكثير من ورقها الفضيّ على الأرض، وكان سقوطها يصدر صوتاً كأنّه النحيب. شعرت بالخوف من السّير كاتو - بل بالرعب الشديد.

قلت لوالدي الملك: «إذا كان التفكير بالسير كاتو يُثْقِلُ صدرك، فلا تفكّر به.»

هز والدي الملك رأسه وأمسك بيدي وقال: «أنت على حق. في الوقت الحاضر سأنسى السير كاتو. تستطيع أن تعزف بمزمارك وأن تبني الأكواخ في حديقة الورود.»

ثم مضينا لنرى بامبو.

كان على والدي الملك أن يُصرّف الكثير من شؤون مملكته، ومع ذلك كان دائماً يعطيني الكثير من وقته. لم يقل يوماً: «هيا امضِ! عندي ما يكفي من المشاغل الآن.»

إنه يحب صحبتي، وفي كل صباح كان يخرج معي إلى حديقة الورود. وقد دلّني على الأماكن التي تُعَشّشُ فيها الطيور، واطّلع

على الكوخ الذي بنيته مع بامبو، وعلّمني أفضل الطرق لامتطاء ميراميس، وكان يمضي وقتاً طويلاً يحدّثني ويحدّث بامبو عن كل شيء. ذاك كان أكثر مايعجبني منه ـ أعني أنه كان يحدّث بامبو أيضاً. كان والد «بن» يحدّثني أيضاً، وكنت أحبّ ذلك منه كثيراً. وكان ذلك مما يَسُرّ «بن» وكأنه يقول: «إنه أبي. ولكني أحب أن يحدثك كذلك.» وكذلك كان شعوري كلما كان والدي الملك يحدّث صديقي بامبو.

أنا على يقين من أن خروجي مع بامبو لأوقات طويلة كان أمراً حسناً و مجدياً، وإلاّ كيف كان لأبي الملك أن يجد الوقت الكافي لتصريف شؤون مملكته؟ فلو أنني لم أكن أقضي مع بامبو في الخارج وقتاً طويلاً، قد يمتدّ أياماً كاملة أحياناً، لاضطرّ والدي الملك الى المكوث معي يلاعبني ويحادثني بدلاً من الانصراف الى شؤون مملكته. وإذن، فقد كان من حسن الطالع أن يكون لي صديق مثل بامبو وحصان مثل ميراميس.

آه، ميراميس حصاني العزيز! لكم امتطيت صهوته وانطلقت به! كان هو الذي حملني عبر جسر نور الصباح لأوّل مرّة. لن أنسى ذلك أبداً!

في مطلع الصباح قام الحارس بإنزال الجسر. كان العشب طرياً ومكسُوّاً بالندى مّما بلّل حوافر ميراميس الذهبية. كنت وبامبو ما نزال نشعر بالنعاس لأننا بكّرنا كثيراً في النهوض. ولكن حين أخذنا نقطع الحقول مسح الهواء البارد المنعش على وجوهنا، وما هي

حتى تبدّد النعاس تماماً. وصلنا إلى جسر نور الصباح في اللحظة التي بزغت فيها الشمس، وبدا عبور الجسر في تلك اللحظة كمن يخوض في حقل أشعّة الشمس الذهبية الباهرة. كان الجسر ينتصب عالياً فوق الماء. ودار رأسي من النظر إلى الأسفل. كنا نعبر بالحصان أعلى وأطول جسر في العالم. أخذ عُرْفُ ميراميس الذهبي يبرق في ضوء الشمس، وعدا مسرعاً فوق الجسر بينما كانت حوافره تقرع الجسر كالرعد. قريباً سأرى الأرض التي تقع على الجانب الآخر من الماء وخلف الجبال!

قلت بصوت مرتفع: «بامبو! أليس المنظر رائعاً! ألست سعيداً أننا جئنا؟» وقبل أن يجيب تنبّهت إلى أمر فظيع يوشك أن يحدث. فقد كان ميراميس يعدو مقبلاً نحو هوّة كبيرة. كان الجسر ينتهي معلقاً في الهواء بدلاً من أن يكون متصلاً بالضفة الاخرى. ذلك لأن الحارس أخفق في إتمام إنزال الجسر حتى الأرض في الجانب الآخر، فبقيت فجوة مُفزعة بلا جسر. لم أشعر في حياتي بمثل ذلك الرعب. أردت أن أصيح منادياً بامبو ولكن الخوف عقد لساني. جذبت زمام الحصان لأوقفه ولكنه لم يستجب. لم يكن منه الاّ أنه صهل بقوّة وتابع العدو بحوافره المدوّية متجهاً مباشرة نحو موت مُحتّم. قريباً سنسقط في الهاوية. قريباً سأتوقف عن سماع وقع حوافر ميراميس. لن أسمع غير صراخه الفزع وهو يهوي بنا في الفراغ بينما يتموّج عرفه الذهبي في الريح فوق رأسه. أغمضت عينيّ وفكّرت بوالدي الملك بينما تابعت حوافر ميراميس قرعها

المدوّي.

فجأة توقف قرع الحوافر. بقيت أسمع أصوات الحوافر، إلاّ أنه صار الآن صوتاً مختلفاً.. صوتاً هادئاً مكتوماً كأنه يعدو الآن على أرض طريّة. فتحت عيني لأرى ميراميس يعدو في الهواء! حصاني العزيز ميراميس ذو العرف الذهبي والحوافر الذهبية يطير في الهواء بنفس المهارة والسهولة التي يعدو بها على الأرض! يستطيع أن يعدو فوق السحاب ويقفز فوق النجوم إذا شاء.

أنا على يقين أنه ليس لأحد حصان بقدرة حصاني وذكائه. ولا يستطيع أحدكم أن يتخيّل شعوري وأنا راكب على صهوته بينما كان يطير عالياً في الفضاء، وأنظر إلى الأرض الواقعة على الجانب الآخر من الماء وقد بدت بعيدة بعيدة أسفل منا في ضوء الشمس.

صحت: «انظر يا بامبو! ميراميس يستطيع أن يعدو فوق السحاب!»

أجاب كأنه لا يرى في ذلك عجباً: «ألا تعرف ذلك؟»

قلت: «كلا. كيف لي أن أعرف ذلك؟»

ضحك بامبو وقال: «هناك الكثير مما لا تعرف.»

طار بنا ميراميس وقتاً طويلاً في السماء، وكان يقفز فوق الغيوم البيضاء الناصعة. كانت المتعة فائقة. ولكن كان لا بّد أخيراً من أن نهبط على الأرض. هبط بنا ميراميس إلى الأرض هبوطاً مريحاً. لقد وصلنا إلى الأرض التي تقع على الجانب الآخر من الماء.

قال بامبو: «انظر! هناك مرجٌ مناسب لميراميس ذي العرف



الذهبي. دعنا نتركه هنا يرعى، ولنذهب نحن لرؤية توتي.»

قلت: «من هو توتي؟»

قال بامبو: «ستعرف قريباً. إنه يعيش قريباً من هنا مع إخوانه وأخواته. أخذ بيدي وقادني إلى كوخ أبيض مسقوف بالقش. كان أيضاً من نوع الأكواخ التي نقرأ عنها في الحكايات الخيالية. من

الصعب أن أفسّر ما الذي يجعل بيتاً ما يبدو كأنه خارج من إحدى الحكايات الخياليّة. لعّله شيء من الجوّ، أو الأشجار القديمة المحيطة به، أو عبير الأزهار الخرافيّ في حديقة البيت، أو شيء آخر لا أدرك كنهه. في حديقة البيت الأمامية كانت هناك بئر قديمة مُدَوَّرة. لعلّ هذه البئر هي التي توحي بأن الكوخ يعود إلى إحدى الحكايات الخرافية. ذلك أننا لا نجد الكثير منها هذه الأيام. على الأقل أنا شخصياً لم أر مثلها من قبل.

كان هناك خمسة أطفال يجلسون إلى جانب البئر. كان كبيرهم صبياً متهلّل الأسارير ضاحك الوجه، ويبدو طيباً للغاية.

قال: «شاهدتكما قادمين. ما أروع حصانك!»

قلت: «اسمه ميراميس. وهذا صديقي بامبو، وأنا ميو.»

قال الصبي: «أعرف. اسمي توتي، وهؤلاء إخواني وأخواتي.»

أرسل إلينا نظرة ودّية وادعة، وكذلك فعل اخوانه وأخواته فيما بدا أنهم سعداء لرؤيتنا. كان الوضع مختلفاً كثيرا عن شارع نورث. فالأولاد هناك يصدّونك ويهرّون عليك كالذئاب إذا اقتربت منهم، إلاّ إذا كانوا يعرفونك من قبل معرفة جيّدة. هناك دائماً شخص ما يتكتلون ضدّه ويمنعونه من اللعب معهم. «بن» وحده كان مستعداً دائماً للّعب معي. أذكر صبياً كبيراً اسمه «بصطر». على الرغم من أنني لم أسبب له أذى في أي وقت فإنه لم يكن يراني إلاّ ويصرخ بي: «انصرف! هيا انقشع والاّ حطّمت عظامك.» ولم يكن من المجدي أن أحاول مشاركة الأطفال الآخرين في اللعب، فهم دائماً إلى



جانبه ويقلدونه لانه كان قويا وكبيرا.

ولأني كنت معتاداً على «بصطر» فقد كان من الجديد عليّ أن أجد أطفالاً ودودين مثل توتي وإخوانه وأخواته وبامبو ونومو.

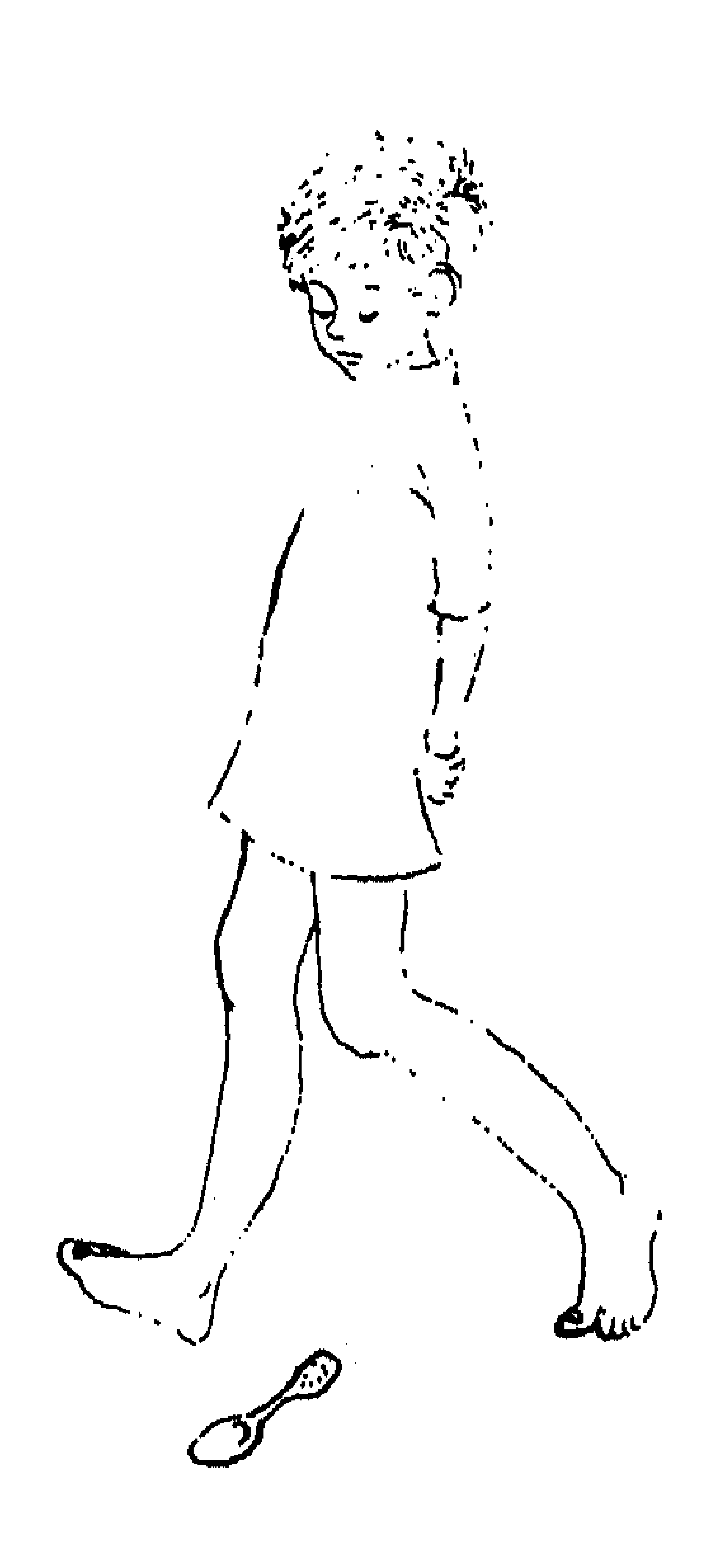
جلست وبامبو على حافة البئر المرتفعة إلى جانب توتي. نظرت إلى الأسفل داخل البئر فوجدتها بعيدة العمق لا يُرى قعرها.

سألت: «كيف تنشلون الماء؟»

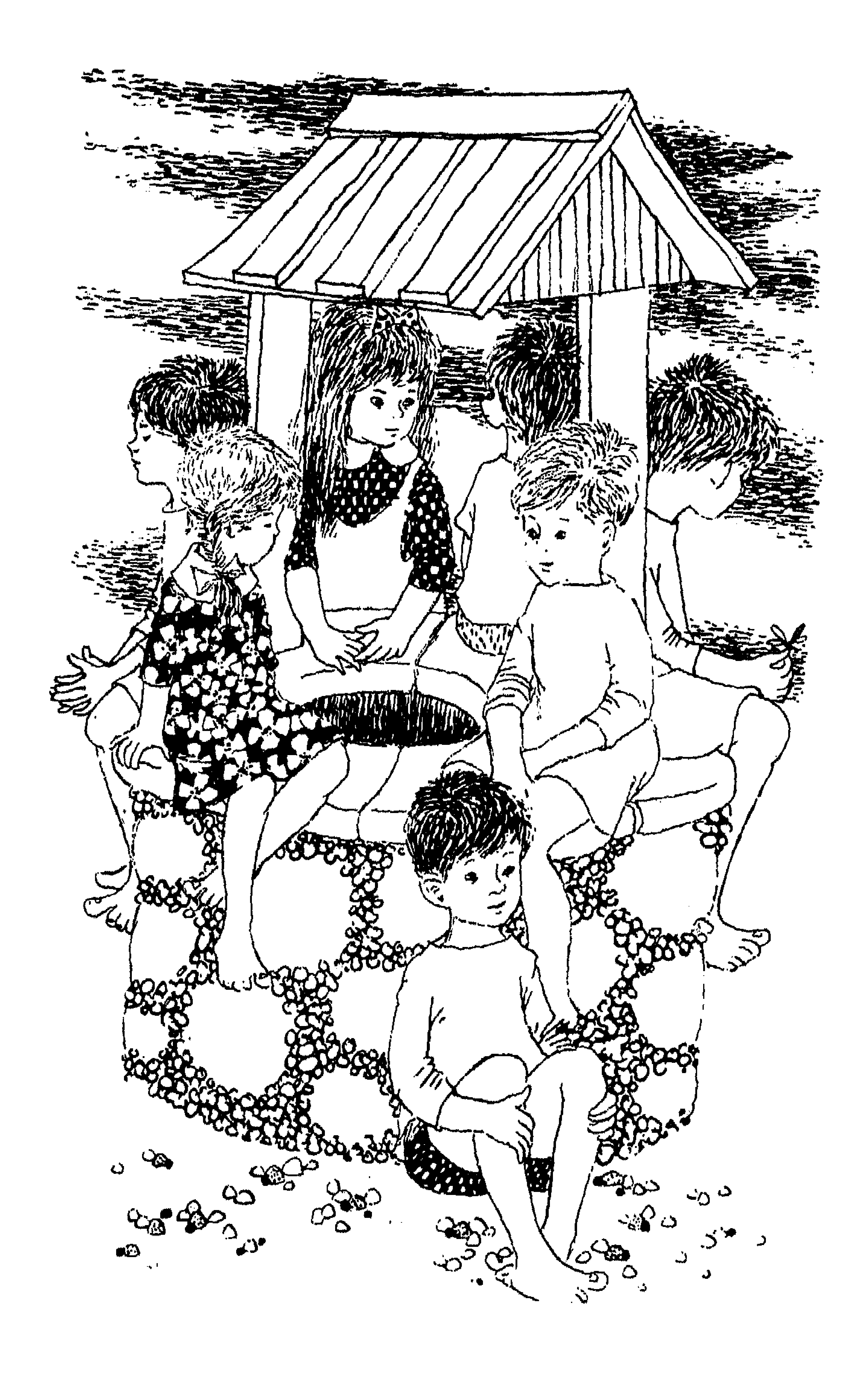
أجاب توتي: «إننا لا نستخرج منها ماء. فهي ليست بئر ماء.»

قلت: «إذن، أيّ نوع من الآبار هي؟»
قال توتي: «تدعى البئر التي تهمس في الليل.»
سألت من جديد: «لماذا؟»
أجاب توتي: «إذا انتظرت حتى المساء فسوف تعرف.»

مكثنا هناك، ولعبنا تحت الشجر القديم مع توتي وإخوانه وأخواته طوال النهار. وحين جعنا أسرعت مينونا، أخت توتي، إلى المطبخ وأحضرت خبزاً. كان من نوع «الخبز الذي يبدّد الجوع.»



واستمتعت به بقدر متعتي السابقة.
وجدت ملعقة مصنوعة من الفضة على العشب تحت الأشجار. أريتها لتوتي فبدا عليه الحزن وقال: «كانت هذه ملعقة إحدى أخواتي.» ثم دعا إخوانه وأخواته ليخبرهم أني وجدت الملعقة.
سألت: «اين أختك تلك؟»
أجاب: «السير كاتو! السير كاتو القاسي أخذها بعيداً!»
حين ذكر الاسم تحوّل الهواء من حولنا إلى هواء بارد كالثلج. ذبلت نبتة كبيرة في الحديقة من نبات «عباد الشمس» وماتت، وفقدت فراشات كثيرة أجنحتها وصارت عاجزة عن الطيران. شعرت بالخوف من السير كاتو. بل بالرعب.
قدّمت الملعقة الفضّية الصغيرة لتوتي، ولكنه قال: «تستطيع الاحتفاظ بملعقة أختي. أنت وجدتها. أما أختي فلم تعد موجودة بيننا لتستَعْملَها.»
بكى إخوانه وأخواته الصغار حين سمعوه يقول إن أخته لم تعد موجودة بينهم لتستعمل الملعقة. ولكن، ما لبثنا بعد ذلك أن عدنا إلى اللعب، ونسينا الأشياء المثيرة للحزن. خبأت الملعقة في جيبي ولم أعد أفكّر بها.
طوال وقت اللعب بقيت أستعجل قدوم المساء لأعرف المزيد عن تلك البئر الغريبة.
انقضى النهار وبدأت العتمة تزحف إلى المكان. ثم أخذ توتي وإخوانه وأخواته يتبادلون النظر حتى قال توتي: «الآن!»، فهرع



الجميع الى موضع البئر وجلسوا على حافتها المرتفعة عن الأرض. وجلست وبامبو إلى جانبهم.

قال توتي: «أرجوكم أن تحافظوا على الهدوء بقدر الإمكان.»

مكثنا جالسين ننتظر دون ان نصدر صوتاً. وبدأت أشباح العتمة تتسلّل بين الشجر. ومع ألوان المساء الرماديّة الغريبة بدا كوخ توتي أكثر من أي وقت سابق شبيهاً بأكواخ الحكايات الخيالية القديمة. لم يكن الليل قد حلّ تماماً. كنا ما نزال في وقت الغسق حين يذوب آخر النهار في أوّل الليل. كان ثمة شيء غامض رماديّ قديم يحيط بالكوخ والأشجار والبئر بصورة خاصّة.

همس توتي: «هُس!»، على الرغم من أن أحداً لم ينطق حرفاً منذ وقت. مكثنا هادئين بينما كانت أشباح المساء الرمادية بين الأشجار تزداد عتمة وسواداً. ولكني حتى تلك اللحظة لم أسمع شيئاً.

نعم، سمعت شيئاً – سمعت همساً غريباً قادماً من عمق البئر. هناك في الغور العميق كان ثمة همس وهمهمة. كان الصوت غريباً لا يشبهه شيء، وكان يهمس بحكايات خرافية خياليّة قديمة. لم تكن مثل غيرها من الحكايات الخياليّة المألوفة، إنما كانت أجمل من كل الحكايات. أسندت صدري على حافة البئر وأدنيت رأسي من فوهتها لأصغي إلى المزيد من ذلك الصوت الهامس.

همست لتوتي: «أية بئر غريبة هذه؟»

أجاب: «إنها بئر مليئة بالحكايات الخيالية والأغاني. هذا كل ما

أعرفه. إنها مليئة بحكايات وأغانٍ سحيقة القدم كان الناس يعرفونها قبل دهور بعيدة.. حكاياتٍ نُسيت وضاعت. ولكنّ البئر التي تهمس في الليل. تذكرها جميعاً.»

لا أذكر كم مكثنا هناك. اشتدت العتمة بين الأشجار، وبدأ الصوت القادم من البئر يضعف ويتلاشى بالتدريج حتى لم نعد نسمع شيئاً.

ولكن، بعيداً في المرعى سمعت صهيل ميراميس. لعّله أراد أن يذكرنا بأن عليّ أن أسرع عائداً إلى والدي الملك.

قلت مودّعاً: «وداعاً يا توتي! وداعاً يا مينونا! وداعاً إيها الاصدقاء.»

ردّ توتي: «وداعاً يا ميو! وداعاً يا بامبو! عودا لزيارتنا سريعاً!»

قلت: «نعم، سنعود.»

أحضرنا ميراميس واعتلينا صهوته، وانطلق بنا بأقصى سرعته. كان القمر قد بزغ في السماء فبدّد بعض العتمة. كان يشع بنوره على الغابة الخضراء ذات الأشجار الصامتة التي تحوّلت كلها إلى اللون الفضيّ مثل أشجار الحور في حديقة والدي الملك.

وصلنا إلى جسر نور الصباح. كان الحارس قد أكمل إنزاله بالصورة الصحيحة. ولكني كدت ألاّ أميّزه. فقد بدا مختلفاً الآن كأنه مصنوع من أشعة فضيّة. بينما كنا نعبر على الجسر قال بامبو: «إن له اسماً آخر في أثناء الليل.»

سألت: «وما ذاك؟»

أجاب: «جسر نور القمر.»

مضينا نقطع «جسر نور القمر» الذي سيقوم الحارس برفعه بعد قليل. ومن بعيد أبصرنا النيران التي يوقدها الرعاة في جزيرة الحقول الخضراء، تبدو كالمصابيح المتناثرة.

كان السكون يلف العالم، إلاّ من وقع الحوافر على الجسر. وبدا ميراميس كأنه حصان شبح في نور القمر. لم يعد عرفه ذهبياً، انما صار فضياً.

استرجعت في ذهني البئر التي تهمس في الليل، والحكايات التي سمعتها منها. كان من بينها حكاية أحببتها أكثر من الجميع. إنها تبدأ هكذا: «كان يا مكان، في زمن من الازمان، ابن لاحد الملوك يقود حصانه في نور القمر...»

كان من الممكن أن يكون ذلك أنا! فأنا ابن الملك، أليس كذلك؟ أخذنا نزداد اقتراباً من جزيرة الحقول الخضراء وكان ميراميس يقرع الجسر بحوافره بصوت كالرعد. ولبثت طوال الوقت أفكّر بتلك الحكاية الخياليّة ومدى جمالها: «كان يا مكان، في زمن من الأزمان، ابن لأحد الملوك يقود حصانه في نور القمر...»



٦. وقاد حصانه عبر غابة أشعة القمر

عندما كنت أعيش مع العم أولاف والعمّة هولدا اعتدت أن أستعيرَ كتب الحكايات الخيالية القديمة من المكتبة. لم يكن ذلك يعجب العمّة هولدا.

كانت تقول: «عدت تدفن وجهك في الكتاب من جديد! لا عجب أنك صغير الحجم وشاحب الوجه وبائس المنظر طالما أنك لا تخرج من البيت كبقيّة الأطفال.»

الحقيقة طبعاً أنني كنت أخرج كثيراً. في الواقع أنني كنت أقضي معظم الوقت في الخارج. ولكن الذي كانت تريده العمّة هولدا وما يريده العمّ أولاف هو ألاّ يرياني أمامهما في داخل البيت اطلاقاً. لا بدّ أنهما سعيدان الآن لأني غربب عن وجهيهما الى الأبد.

لم تكن تتاح لي فرصة القراءة الا وقتاً قصيراً من الليل. و لم يكن ذلك ليجعل وجهي دائم الشحوب. ليت العمّة هولدا هنا الآن لترى مقدار ما بلغت من القوّة والجسامة والعافية. في وسعي الآن أن أصرعَ بَصْطر بيد واحدة. ولكن ما كنت لأفعل ذلك حتى لو كنت ما أزال أعيش في شارع نورث، لا لشيء الاّ لأنني لا أريد ذلك. ماذا عسى العمّة هولدا أن تقول لو سمعت بالبئر التي تهمس في الليل؟ اذن لأدركت أنه ليس على الانسان أن يجلس ويصاب بالشحوب وهو يقرأ حكاية خيالية، وانما يستطيع أن يخرج في

الهواء الطلق ويسمع ماشاء من الحكايات الخيالية. ربّما سرّ ذلك حتى العمّة هولدا، على الرغم من أنني لا أستطيع أن أتصوّرها مسرورة لأي سبب.

آه، لو أنها فقط تعرف أن ثمة في فاراوايلاند بئراً تهمس في الليل!

«كان يا مكان، في زمن من الأزمان، ابن لأحد الملوك يقود حصانه في أشعّة القمر...»

ذلك ما قالته البئر. لا أستطيع أن أتوقف عن التفكير به. لقد بدا لي أن البئر قصدت شيئاً خاصّاً بتلك الحكاية – لعلّ المقصود بذلك أنا، ابن الملك الذي عبر يوماً بحصانه في غابة أشعّة القمر، وأن عليّ أن أكرر ذلك. لعلّ البئر قد حكت وغنت لي أنا طوال المساء لتوحي لي بما يجب عليّ أن أفْعَل.

سألت والدي الملك عن مكان غابة أشعة القمر، فقال: «إن غابة أشعة القمر تقع في الأرض الواقعة خلف الجبال.» قال ذلك بصوت يشوبه الحزن، وأردف قائلاً: «ولكن، لماذا تسأل يا ميو، يا ولدي؟»

قلت: «أريد أن أتجوّل فيها بحصاني عندما يبزغ القمر.»

نظر والدي الملك إليّ نظرة تمعّن وقال متنهّداً بصوت ممعن في الحزن: «آه! بهذه السرعة؟»

قلت: «لعلّك لا تريدني أن أذهب، لعلّك ستقلق عليّ إذا تجوّلت في غابة أشعة القمر في الليل؟»

هز والدي الملك رأسه وقال: «لا، أبداً! لماذا أقلق؟ لا أحسب أن غابةً تنام في الليل بسكينة غامرة يمكن أن تضرّ أحداً.»

بعد ذلك جلس صامتاً ينظر إلى الأرض. كان من الواضح أنه ليس سعيداً، فأقبلت عليه وطوّقته بذراعي مواسياً وقلت: «هل يجب أن أبقى في البيت معك؟»

نظر إليّ طويلاً بعينين حزينتين، ثم قال: لا يا ميو، يا ولدي! ليس عليك أن تبقى. لقد بزغ القمر الآن، وغابة أشعة القمر في انتظارك.»

سألت: «هل أنت متأكد من أنك لن تقلق عليّ؟»

أجاب: «نعم أنا على يقين.» وربّت على رأسي.

وهكذا أسرعت خارجاً لأعرض على بامبو أن يرافقني إلى غابة أشعة القمر إن أحبّ. ولكن قبل أن أبتعد كثيراً سمعت صوت والدي الملك يناديني من جديد: «ميو، يا ولدي!»

استدرت نحوه، فرأيته يمدّ إليّ ذراعيه، فركضت إليه وألقيت نفسي بين ذراعيه. ضمّني إليه بشدّة وقتاً طويلاً.

قلت: «ولكني لن أتأخر كثيراً.»

قال: «حقاً، لن تتأخر؟» لم يكن صوته هذه المرة غير همس رقيق.

وجدت بامبو خارج كوخ الجنائني فأخبرته بعزمي على الذهاب إلى غابة أشعة القمر.

قال بامبو: «آه! أخيراً!»

لم أفهم المغزى في قول أبي «آه! بهذه السرعة!» ثم قول «بامبو آه! أخيرا» حين أخبرتهما برغبتي في الذهاب إلى غابة أشعة القمر. ولكن ذلك لم يستوقفني.

سألت: «هلِ أنت قادم معي؟»

التقط بامبو نفسه وقال: «نعم. بالتأكيد»

أحضرنا ميراميس الذي كان يرعى في حديقة الورود وأمرته بأن يحملنا إلى غابة أشعة القمر، فرفع قائمتيه الأماميّتين إلى الأعلى فرحاً كأن ما سمعه هو أفضل خبر جاءه منذ وقت طويل. وما هي حتى اعتلينا صهوته فانطلق بنا كوميض البرق.

ما إن خرجنا من حديقة الورود حتى سمعتٍ صوت والدي الملك يصيح: «ميو، يا ولدي!». كان صوته مفعماً بحزن لم أسمع من قبل مثله أبداً. ولكني لم أستطع العودة إليه. لا لم يعد ذلك ممكناً.

كانت الأرض الواقعة خلف الجبال بعيدة جداً. وبدون حصان مثل ميراميس ما كان باستطاعتنا الوصول اليها؛ لولاه ما كان باستطاعتنا أن نصعد تلك الجبال الشاهقة التي تكاد تلامس السماء. ولكن الأمر كان سهلاً بالنسبة إلى ميراميس. فقد كان يقفز على قمم الجبال كأنه الطير. أوقفته لحظات على أعلى القمم حيث لا تذوب الثلوج أبداً. مكثنا على صهوة ميراميس ننظر أسفل منا إلى الإرض التي انتظرتنا طويلاً عند أقدام الجبل. هناك كانت غابة أشعة القمر تمتد أمام عيوننا في نور القمر. بدت لنا رائعة الجمال لا

تنذر بأي خطر. أنا الآن على يقين من أن غابةً تنام في نور القمر لا يمكن أن تؤذي أحداً. كان والدي الملك محقاً كلّ الحق. كل ما في هذه البلاد وديع وودّي؛ لا أعني البشر وحسب، وإنما كذلك الغابات والحقول والغدران والأشجار؛ كلّها وديع رائق لا يُضْمر لك شراً. كان الليل وديعاً صافياً كالنهار. إذ إن أشعة القمر تشبه أشعة الشمس الهادئة اللطيفة. والعتمة، حتى العتمة، كانت عتمة مريحة وديّة. لم يكن ثمّة ما يثير الخوف.

بلى! كان هناك شيء واحد مخيف – شيء واحد فقط!

فمن على صهوة حصاني ميراميس، رأيت في الأفق البعيد البعيد منطقة شديدة العتمة فاحمة السواد، ولم تكن تلك العتمة مريحة أبداً.

سألت بامبو: «ما تلك الأرض الموحشة هناك؟»

قال بامبو: «تلك بداية الأرض القصيّة. إنها منطقة الحدود في الأرض القصيّة.»

سألت: «أرض السير كاتو؟»

عندما سمع ميراميس الكلمة ارتعد ارتعادة هائلة كأن موجة من البرد قد سرت في عظامه، وانقلعت صخور عظيمة وتدحرجت من أماكنها من الجبل نحو الوادي مع دويّ هائل كالرعد.

نعم، كان هناك مصدر واحد للخطر – السير كاتو. لم يكن في وسعي إلاّ أن أشعر بالخوف منه – بل الرعب. ولكني حاولت أن أتفادى التفكير به.

قلت لبامبو: «غابة أشعة القمر! غابة أشعة القمر هي المكان الذي أريد الذهاب إليه.»

صهل ميراميس فرددت الجبال صدى صهيله، وجاوبت الغابة كأن مائة حصان يصهلون معاً في جوف الليل. ثم طار ميراميس في الهواء هابطاً بلطف نحو الغابة المضاءه بنور القمر أسفل الجبل.

أخذ ميراميس يقترب بنا أكثر فأكثر من الغابة حتى لمست حوافرهُ رؤوس الشجر، ثم هبط بنا بنعومة إلى الأرض بين أغصان الشجر الخضراء المورقة. لقد وصلنا إلى غابة أشعة القمر.

لم أرَ في حياتي غابات كثيرة، ولكنني على يقين من أن هذه الغابة فريدة من نوعها. ثمّة سرّما في غابة أشعة القمر. شعرت أن الغابة تنطوي على سرّ عظيم وهام. ولكن القمر قد لفّ الغابة بعباءته كيلا أعرف أين يكمن ذلك السرّ – حتى يحين الوقت المناسب. سمعت حفيف الشجر. كان يتهامس بالسّر، إلاّ أنني لم أفهم الهمس. كانت الأشجار تقف ساكنة وهي تتلألأ في نور القمر. كانت تعرف السرّ الذي أجهله .

ثم سمعنا من بعد وقْعَ حوافر مدوّية كأن مئات الخيول تعدو في الليل. وتذكرت الصوت الذي جاء من الغابة ردّاً على صهيل ميراميس، وكان كأنه صوت مائة من الخيول تصهل معاً. ازداد دوّي الحوافر اقتراباً، والصهيل علوّاً.. وإذ بها جميعاً أمام أبصارنا – مائة من الخيول البيضاء ذات الأعراف الطويلة المتموّجة. انضم ميراميس إليها بلهفة واضحة، وأخذت تعدو معاً في فسحة من





الأرض في جوف الغابة. كنت وبامبو قد نزلنا عن ظهر ميراميس.
ووقفنا هناك تحت إحدى الأشجار نراقب الخيول بقيادة ميراميس
تعدو بنشاط جامح في كل مكان تحت نور القمر.

قال بامبو: «إنها مسرورة»
قلت: «لمَ؟»
قال: «لأن ميراميس عاد إلى موطنه. ألم تعلم بأن موطن ميراميس هو في غابة أشعة القمر؟»
قلت: «كلا، لم أعلم.»
قال: «ثمّة الكثير مما لا تعلم يا ميو!»
سألت: «وكيف إذن صار ميراميس مُلْكي؟»
أجاب: «بعث مولانا الملك برسالة يأمر فيها بأن يأتي مهر أبيض من الغابة إلى جزيرة الحقول الخضراء ليصبح حصانك.»
راقبت ميراميس يعدو نشطاً سعيداً في نور القمر، وفجأة انتابني شعور بالقلق.
سألت: «بامبو! هل تعتقد أن بقاء ميراميس معي يسبّب له الحزن؟ لعّله يتألّم شوقاً لموطنه في غابة أشعة القمر!»
حين قلت ذاك، أقبل ميراميس عليّ راكضاً. وضع رأسه على كتفي، ومكث على ذلك وقتاً لا يتحرّك، إلا أنه كان يصهل صهيلا رقيقاً خافتاً.
قال بامبو: «ألا ترى؟ انه يفضّل أن يكون معك.»
أسعدني ذلك كثيراً. ربّتُ على ميراميس وقدّمت له قطعة من السكّر، وأحسست بنعومة أنفه حين كان يلتقط السكّر من راحة يدي.
اعتلينا صهوته من جديد ومضينا عبر الغابة تتبعنا الخيول البيضاء

المائة. كان في استطاعتي أن أشعر بالسّر يطوف في الهواء. الغابة كلها تعرفه؛ كل شجرة منها كانت تعرفه: أشجار الزيزفون الخضراء وأشجار الحَوْر التي كانت تحتك أغصانها برووسنا احتكاكاً رقيقاً. الخيول البيضاء كانت تعرف؛ كذلك الطيور التي استيقظت على وقع الحوافر. الكل كان يعرف.. إلاّ أنا. أحسب أن بامبو كان محقاً حين قال: «ثمة الكثير مما لا تعرف يا ميو!»

حثثت ميراميس فاشتدّ بالعدو وتابعتنا الخيول البيضاء. وعلق ردائي الخارجي بأحد الأغصان. لعّل الشجرة تريد أن تستوقفني. لعلها تريد أن تبوح لي بالسّر. ولكني كنت على عجل، فتابعت العدو بالحصان وانخرق ردائي.

في وسط الغابة وصلنا الى كوخ صغير من طراز تلك الأكواخ



الصغيرة البيضاء المسقوفة بالقش والتي تحمل طابع الحكايات الخياليّة القديمة. كانت أشجار التفاح المزهرة تحيط بنا من كل ناحية. وكان نَوْرُها الأبيض يتوهّج في نور القمر. كان ثمة نافذة مفتوحة، واستطعت أن أسمع صوتاً يقرع في الداخل. كأنّ شخصاً هناك يحوك النسيج.

قلت لبامبو: «دعنا نرَ مَن يحوك هناك؟»

قال بامبو: «نعم. دعنا نرَ.»

قفزنا عن صهوة ميراميس، ومضينا عبر الطريق الضيّق المحاط بأشجار التفاح نحو الكوخ. قرعنا الباب فتوقّف صوت الحَوْك. وسمعنا صوتاً في الداخل يقول: «ادخلا أيها الصبّيان. لقد انتظرتكما زمناً طويلاً.»

دخلنا الكوخ، ورأينا هناك حائكة تعمل على النّول. بدت طيّبة ولطيفة، وأومأت لنا برأسها.

سألت: «لماذا تحوكين النسيج في جوف الليل.»

قالت: «أحوك نسيج الأحلام. وهذا لا يكون إلاّ في الليل.»

شعّ نور القمر عبر النافذة وسقط على النسيج، فأخذ يتلألأ في جمال بديع أخّاذ. لم أرَ في حياتي نسيجاً بمثل ذلك الجمال.

قالت السيّدة: «نسيج الأحلام والحكايات لا يُحاك إلاّ في الليل.»

قلت: «ماهي الخيوط التي تستعملينها لصنع هذا النسيج الجميل؟»



لم تجب، وتابعت الحوك. أخذت تضرب نولها وتهمهم لنفسها بأغنية في الوقت نفسه:

« شعاع القمر
شعاع القمر
دم نازفٍ من جراح القلوب
خيوطٌ من الفضّة الناصعة
وأخرى من الأرجوان
براعم تفاحنا الرائعة
تزيد النسيج نعومة
فيغدو أرق من النسمة الحالمة

تداعب عشب الحقول
ولكنّ طير الأسى
يغنّي فيُشْجي القلوب
بأعماق غابتنا النائمة.»

مضت تغني كذلك بنبرة هادئة رتيبة لم أجدها جميلة بصورة مّميزة. وعندما توقفت استطعت أنّ أسمع أغنية أخرى قادمة من الغابة. انها أغنية أعرفها جيّداً. كانت السيّدة الحائكة على حق؛ إن طائر الأسى يغني في الغابة. كان يغنّي بصوت شجيّ حزين يجرح القلب.

سألت الحائكة: «لماذا يغني طائر الأسى؟»

وهنا بدأت في البكاء. سقطت دموعها على النسيج وتحوّلت إلى حبّات لؤلؤ صغيرة مما زاد النسيج جمالاً على جمال.

عدت أسأل: «لماذا يغنّي طائر الأسى؟»

أجابت وقد اشتدّ بكاؤها المرير: «انه يغنّي عن طفلتي الصغيرة. إنه يغنّي عن طفلتي الصغيرة التي خُطفَتْ منّي.»

سألت: «من خطف طفلتكِ الصغيرة؟» ولكني أدركت المقصود فوراً قبل أن تخبرني، فاستدركت راجياً: «أرجوك، لا تذكري الاسم.»

قالت الحائكة: «لن أذكره، والاّ انطفأ نور القمر وبكت الخيول دماً.»

سألت: «ولماذا تبكي الخيول؟»

قالت: «حزناً على مهرها الصغير الذي سُرِق أيضاً. لهذا كلّه يغنّي طائر الأسى في الغابة!».

وقفت وأصغيت إلى أغنية طائر الأسى. لقد غنّى لي في الكثير من الأمسيات في حديقة الورود، ولكني لم أكن أعرف عمّاذا يغني. لقد عرفت الآن. إنه يغنّي عن كلّ المخطوفين والمسروقين: عن ابنة الحائكة الصغيرة، وعن أخوَي نومو، وعن أخت توتي، وعن الكثير من الآخرين الذين أسرهم السير كاتو وأخذهم إلى حصنه.

لهذا عمّت الأحزان تلك الأكواخ الصغيرة في جزيرة الحقول الخضراء وفي الأرض الواقعة على الجانب الآخر من الماء وخلف الجبال. وكيف لا يحزن الناس على أولئك الأطفال الذين فقدوا؟ حتى الخيول في غابة أشعة القمر لديها ما يُحزنها وما يجعلها تَبكي دماً حين تسمع اسم اللصّ القاسي الذي حَرَمَها من فلْوها.

السير كاتو! لقد ازداد خوفي منه. ولكن، بينما كنتَ أقف هناك في الكوخ أُصغي إلى طائر الأسى حدث لي أمر غريب. أخيراً أدركت السبب المجهول الذي قادني إلى غابة أشعة القمر هذه الليلة. وراء الغابة تقع المنطقة الحدودية من «الأرض القصيّة». إنها المكان الذي يجب أن أذهب إليه! سأذهب إلى هناك لأقاتل السير كاتو، على الرغم من أنني كنت خائفاً، بل شديد الخوف، وأكاد أصرخ عندما أفكّر بالذي يجب عليّ عمله.

استأنفت الحائكة عملها في الحوك. وعادت تدندن لنفسها بتلك الأغنية الرتيبة «شعاع القمر.. شعاع القمر.. دم نازف من

جراح القلوب.» ولم تعد تلتفت إلينا.
قلت لبامبو بصوت بدا غريباً: «اسمع يا بامبو! أنا ذاهب إلى «الأرض القصيّة» الآن.»
قال بامبو: «أعرف.»
قلت مندهشاً: «كيف عرفت؟ أنا نفسي لم أقرّر ذلك إلاّ منذ دقائق.»
قال بامبو: «ثمّة الكثير مما لا تعرف يا ميو.»
قلت: «ولكن يبدو أنك أنت على علم بكل شيء!»
قال: «أجل، هو كذلك. لقد عرفت منذ وقت طويل أنك ستذهب إلى «الأرض القصّية». الكل يعرف.»
قلت متعجباً: «حقا؟»
قال: «نعم. طائر الاسي يعرف. الحائكة تعرف. الخيول البيضاء المائة تعرف. غابة أشعة القمر كلّها تعرف. الأشجار تتهامس بذلك. كذلك العشب وأشجار التفاح في الخارج - كلّها تعرف.»
ردّدت قائلاً: «أحقاً يعرفون؟»
تابع بامبو قائلاً: «ما مِنْ راع من رعاة الحقول الخضراء إلاّ ويعرف، ويعزف الألحان بمزماره في الليل من أجل ذلك. نومو يعرف أيضاً، وجدّته، وتوتي وإخوانه وأخواته. والبئر التي تهمس في الليل تعرف ذلك. كلّهم، كلّهم يعرف.»
همست قائلاً: «ووالدي الملك...؟»

قال بامبو: «والدك الملك يعرف ذلك منذ أمدٍ طويل.»
سألت بصوت مخنوق: «هل يريدني أن أذهب؟»
قال بامبو: «نعم. إن الأمر يحزنه، ولكنه يريدك أن تذهب.»
قلت: «ولكنّي خائف جدّاً.» وبدأت أبكي. لقد أدركت الآن مدى رعبي. تشبثت بذراع بامبو وقلت: «لا أجرؤ يا بامبو. ولكنْ، لماذا يريد والدي الملك أن أذهب أنا دون غيري؟»
قال بامبو «ما من أحد يستطيع القيام بهذه المهمّة الاّ صبيّ من نسل الملوك. هذا ما تقوله النبوءة.»
قلت وأنا أشدّ على ذراع بامبو: «ولكن ماذا لو متّ؟»
لم يجب
عدت أسأل: «هل يريدني والدي الملك أن أذهب مهما حصل؟»
توقفت السيّدة الحائكة عن عملها وعمّ الهدوء الكوخ. كذلك توقف طائر الأسى عن الغناء. ولم تعد الأشجار تحرّك أغصانها. بدا كل شيء ساكناً.
قال بامبو بصوت هادىء لا يكاد يُسمع: «نعم. والدك الملك يريدك أن تذهب مهما حصل.»
أُسقط في يدي وصحت: «لا أستطيع! لا أستطيع! لا أستطيع!»
لبث بامبو صامتاً لا ينبس بكلمة. كل ما في الأمر أنه نظر إليّ ولم يقل شيئاً. ولكن طائر الأسى عاد يغني من جديد أغنية تقطّع نياط القلب حزناً.

قالت الحائكة: «إنه يغنّي عن طفلتي الصغيرة.» وانحدرت دموعها وسقطت على النسيج وتحوّلت إلى لآليء.

عندئذ ضممت قبضتي وصحت: «أنا ذاهب الآن فوراً يا بامبو. أنا ذاهب إلى الأرض القصيّة.»

سرت تنهيدة عالية عبر غابة أشعة القمر، وارتعش صوت طائر الأسى ارتعاشة لم تسمع غابة مثلها من قبل.

قال بامبو: «أعرف.»

قلت: «وداعاً يا بامبو! وداعاً يا صديقي العزيز بامبو.» كنت على وشك البكاء من جديد.

نظر بامبو إليّ وبدت عيناه وديعتين كعينيّ «بن» تماماً. ثم لاح على وجهه طيف ابتسامة وقال: «أنا ذاهب معك.»

ذاك بامبو! صديقي المخلص الحميم بامبو! لكم أسعدني أن أسمعه يقول إنه ذاهب معي! ولكني لا أريده أن يتعرّض للخطر، ولذلك قلت: «لا يا بامبو لا تستطيع أن تأتي معي.»

قال بامبو: «بل أنا ذاهب معك. هكذا تقول النبوءة: صبي من نسل الملوك يمتطي حصانه الأبيض ذا العرف الذهبي مع صديق واحد. هذا ما تقوله النبوءة. ليس في وسعك أن تغيّر نبوءة عمرها ألف ألف سنة.»

ردّدت الحائكة قائلة: «ألف ألف سنة. أذكر أن الريح كانت تتغنى بذلك حين كنت أزرع أشجار التفّاح، وكان ذلك منذ زمن بعيد بعيد — ألف ألف سنة».

ثـم أومأت إليّ برأسها وقالت: «تعال يا ميو لأرتق لك الخَرْقَ الذي في ردائك».

قصّت قطعة من النسيج الذي حاكته ورقعت بها مكان الخرق الذي أصاب ردائي أثناء عدوي بالحصان في الغابة. وفي الوقت نفسه بطّنت داخل الرداءِ بقماشها اللامع البرّاق، فتدلّى الرداء من فوق كتفي خفيفاً وناعماً ودافئاً.

قالت الحائكة: «أفضلُ نَسْجي أُعْطيه للشخص الذي سينقذ ابنتي الصغيرة. وسوف أعطيك من الخبزَ الذي يبدّدالجوع. حافظ عليه جيداً! فلسوف تمضي في طرق الجوع!»

أعطتني الخبز وشكرتها عليه. ثم استدرت نحو بامبو وقلت: «هل أنت مستعدّ للانطلاق؟»

قال بامبو: «نعم أنا جاهز.»

خرجنا من الكوخ. ومشينا في الطريق المحاط بأشجار التفاح. امتطينا صهوة الحصان، وعندئذ نشر طائر الأسى جناحيه وطار عالياً نحو الجبال.

وقفت الخيول البيضاء المائة ساكنة ترقبنا ونحن نبتعد عبر الأشجار. لم تلحق بنا هذه المرّة. والتمعت براعم التفاح البيضاء كأنها نديف الثلج في نور القمر. التمعت كنديف الثلج.... لعلّي لن أرى براعم التفاح الجميلة البيضاء مرّة أخرى.

٧. الطيور المسحورة

لعلّي لن أرى براعم التفاح البيضاء والأشجار الخضراء المتطاوحة والعشب الطري مرّة آخرى. ذلك أنّا كنا نمضي إلى بلد لا تتفتّحُ فيه الأزهار ولا ينمو فيه العشب والشجر.

تابعنا المسير في الليل حتى خرجنا من غابة أشعة القمر الوديعة وخلّفناها وراءنا. لم يعد ثمة ما هو طيب وديع أمامنا. لم يعد أمامنا غير العتمة الداكنة. تلاشى ضوء القمر، ودخلنا في أرض صخرية تنتصب في كل مكان منها صخور حادّة ناتئة مرتفعة بدت وكأنها توشك أن تطبق علينا. ثم دخلنا في طريق ضيّقة معتمة محصورة بين جبلين شاهقين أسودين.

قال بامبو: «أتمنى لو لم تكن الطريق معتمة الى هذا الحدّ. أتمنّى لولم تكن الجبال بهذا السواد، ولم نكن نحن ضئيلين وحيدين هكذا.»

كانت الطريق متعرّجة ملتوية، وبدا أن آلاف المخاطر تكمن وراء كل منعطف فيها. أعتقد أن ميراميس كان يشعرٍ كما نشعر. فقد أخذ جسمه كلّه يرتجف، وٍأراد أن يستدير عائداً. ولكني جذبتٍ زمامه بقوّة وحملته حملاً على المتابعة. ازدادت الطريق ضيقاً، وازداد الجبلان الأسودان اللّذان يحفّان بالطريق شهوقاً. وزادت العتمة شدّةً. ثم بلغنا مكاناً بدا كأنه بوابة. ولم تكن تلك غير فتحة

ضيّقة صغيرة بين الصخور. وخلفها كانت العتمة أشد حلكةً من أي عتمة أخرى في العالم.

همس بامبو: «الأرض القصّية». هذا مدخل «الأرض القصّية.»

تراجع ميراميس جامحاً ورفع قائمتيه الأماميتين وصهل صهيلاً مفزعاً لم أحتمل سماعه. كان صوته رهيباً، ولم يكن ثمة صوت غيره. ذلك أن العتمة أمامنا كانت ساكنة لا حسّ فيها. وبدا كأنها كانت تراقبنا؛ كأنها تتربّصُ بنا وتنتظر أن نقطع الحدّ.

أدركت أن عليّ أن أدخل في جوف العتمة. إلاّ أنني لم أعد خائفاً إطلاقاً. إذ لا ضرورة للخوف طالما أنه قد كتب منذ ألف سنة أنني سوف أعبر تلك البوابة المعتمة. لقد جعلني ذلك أكثر شجاعة وإقداماً. تيقّنت أنه لا بدّ لي من العبور مهما كان الأمر. لقد عزمت أمري ألاّ أخاف أبداً.

حملت ميراميس على الدخول في المكان المعتم. وعندما رأى أني لن أسمح له بالنكوص انطلق بأقصى سرعته عبر البوابة الضيقة، وتابع عدوه السريع عبر الطريق المظلمة التي تليها. مضينا نشق الظلام، وكان كل ما حولنا شديد السواد. ولم نكن نعرف الطريق.

ولكنّ بامبو كان معي. كان رديفي على صهوة الحصان ويطوقني بذراعيه، فشعرت بأنني أزداد له حباً. لم أكن وحيداً. كان معي صديق.. صديق واحد كما تقول النبوءة.

لا أعرف كم من الوقت قضينا نعدو بالحصان عبر الظلام. ربّما

كان وقتاً قصيراً، وربّما كان الكثير الكثير من الساعات. أو ربّما كان ألف ألف سنة؛ هكذا بدا لنا على كل حال. كان الأمر شبيهاً برحلة في حلم... واحد من تلك الأحلام المفزعة التي تصحو منها صارخاً ثم تمكث متمدداً ترتجف من الخوف لوقت طويل. ولكن هذا لم يكن حلماً أستطيع أن أصحو منه. وهكذا تابعنا المسير بلا توقف. وامتدت بنا الطريق موحشة طويلة. لم نكن نعرف وجهتنا، ولا طول المسافة. فلم يكن أمامنا إلاّ أن نتابع الطريق عبر الظلام.

أخيراً توقف ميراميس توقفاً مفاجئاً. لقد وصلنا إلى بحيرة لم أر في حياتي أشّد منها هولاً وإيحاشا حتى في أفظع الأحلام. فأين يمكن أن ترى ماءً بمثل هذا السواد؟ إنها أكثر بحيرات الدنيا سوادا وإيحاشا. ولم يكن حولها إلاّ صخور عالية سوداء موحشة. وكان ثمة طيور تحوم في دوائر فوق الامواج المعتمة. كان هناك أسراب منها. ولم يكن في وسع الواحد أن يراها، وإنما يستطيع أن يسمعها. لم أسمع في حياتي ما هو أشّد حزناً وتفجعاً من صيحاتها. شعرت نحوها بالحزن والأسى! فقد كانت أصواتها توحي بأنها تستغيث، وأنها تبكي وأن قلوبها محطّمة.

على الشاطىء الآخر البعيد من البحيرة، كان حصن أسود كبير ينتصب فوق أعلى الصخور السوداء هناك. ولم تكن فيه غير نافذة واحدة مضاءة، بدت كأنها عين شريرة – عين حمراء مخيفة تحدّق عبر الظلام وتضمر لك الشرّ.

همس بامبو! «ذاك حصن السير كاتو.» وارتعدت مفاصل



ميراميس.

حصن السيركاتو! إنه هناك! هناك على الشاطىء الآخر من البحيرة السوداء يعيش عدوّي الذي جئت لأقاتله. وعلى الرغم من

أنني عزمت على ألاّ أخاف فإن تلك العين الشرّيرة التي تحدّق في البحيرة قد أفزعتني. كيف لإنسان في مثل صغري أن يهزم شخصاً في مثل خطورة السيركاتو وطغيانه؟

قال بامبو: «تحتاج الى سيف مؤكّداً.»

حين قال ذلك سمعنا شخصاً يئنّ ويتأوّه قريباً منا:

«آه ... آآآه.. إنني أموت من الجوع، آه.. آآآه!»

كنت أدرك أن الاقتراب من مكان الصوت يمكن أن يكون محفوفاً بالخطر. لعلّه شخص يحاول الإيقاع بنا. ومع ذلك قرّرت الذهاب. فأيّا كان الرجل فإن عليّ أن ألقاه لأقدّم له المساعدة إن كان حقاً يحتاج اليها.

قلت لبامبو: «يجب أن نذهب إليه. يجب أن نساعده.»

قال بامبو: «أنا قادم معك.»

ربّتُ على أنف ميراميس وقلت: «أما أنت يا ميراميس فتمكث هنا.» صهل ميراميس بقلق.

قلت: «لا تقلق. سنعود سريعاً.»

أيّا كان صاحب الأنين فلا بدّ أن يكون في مكان قريب. ومع ذلك يبقى الوصول إليه في الظلام أمراً صعباً

وعاد الصوت: «آه... آآآه.. إنني أموت من الجوع، آآآه!»

تحسسنا طريقنا في اتجاه الأنين. تعثرنا بالصخور ووقعنا على الأرض في الظلام، ولكننا وصلنا أخيراً الى كوخ قديم. لم يكن غير كوخ بسيط متهالك متداعٍ في واقع الحال. ولولا أنه كان يستند الى

جدار من الصخر لانهار منذ وقت. شاهدنا نوراً خافتاً من إحدى النوافذ فتسللنا نحوها واختلسنا النظر خلالها. كان هناك رجل عجوز ضئيل الجسم أشعث الشعر شديد الإعياء. كان يجلس أمام النار ويهز جسمه إلى الأمام وإلى الخلف ويردد «آه... آه!»

وهكذا دخلنا الكوخ، فتوقف العجوز النحيل عن الأنين وحدّق بنا. وقفنا عند الباب بينما تابع التحديق بنا كأنه لم يرَ مثلنا في حياته. رفع يديه الشائختين الهزيلتين أمام وجهه خوفاً وقال: «لا تؤذياني! لا تؤذياني!»



أخبرتهِ أننا لا نريد له الأذى، وقلت: «سمعناك تقول إنّك جائع. فجئنا نعطيك بعض الخبز»

أخرجت بعض الخبز الذي أعطتني إياه السيّدة الحائكة وقدّمته له. لكنه تابع التحديق بي. قرّبت الخبز منه ولكنه ظل خائفاً متردداً كأنما ظنّ أن في الأمر مكيدة مدبّرة.

قلت: «خذ الخبز! لا تخف!»

مدّ يده ببطء وأخذ الخبز. قلّبه في يديه وتحسّسه. ثم قرّبه من أنفه وشمّه، وعندئذ انخرط في البكاء.

همس قائلاً: «إنه خبز! إنه الخبز الذي يبدّد الجوع.»

ثم أخذ يأكل. لم أرَ في حياتي أحداً يأكل مثله. طفق يأكل ويأكل بينما ظلّ يبكي في أثناء ذلك. وحين فرغ أخذ يلتقط حبيبات الخبز التي سقطت على ثيابه ويأكلها، ولم يلتفت إلينا إلاّ بعد أن فرغ من ذلك، وقال: «من أين جئتما؟ من أين أتيتما بهذا الخبز؟ أناشدكما بكل أيام الجوع التي عشتها أخبراني من أين أتيتما به؟»

قلت: «جئنا من فاراوايلاند حيث يوجد هذا الخبز»

قال: «ولم جئتما هنا؟»

قلت: «لنقاتل السيركاتو.»

ما إن قلت ذلك حتى أطلق الرجل العجوز صيحة وارتعد ارتعادةً أسقطته عن مقعده. تدحرج على أرض الغرفة كأنه كرة من الصوف الرماديّ وزحف نحونا. مكث مستلقياً هناك عند أقدامنا ينظر إلينا بعينين خائفتين مرتعشتين.



همس قائلاً: «عودا من حيث أتيتما. عودا قبل أن يفوت الوقت.»

قلت: «لن أعود. لقد جئت لأقاتل السير كاتو.»

قلت ذلك بصوت قويّ واضح لا لبس فيه. نطقت اسم السير كاتو بأقصى ما استطعت من الوضوح والمباشرة بلا أدنى تردد. وعاد الرجل العجوز يحدّق بي كأنه ينظر الى انسان يوشك الآن على الموت.

تأوّه قائلاً: «آه.. آه! أخفِضْ صوتك أيها الفتى وعد أدراجك! عد قبل فوات الوقت! اني أتوسل اليك!»

قلت من جديد: «لن أتراجع. جئت لأقاتل السير كاتو.»

همس الرجل العجوز وقد ذهب الرّعب عنه: «هسّ! ألم أقل لك: أخفض صوتك! لعلّهم الآن يكمنون في الخارج.»

سحب جسمه الضئيل الى الباب وأنصت بتوتر بالغ. ثم قال «لا أسمع شيئاً. ومع ذلك يمكن أن يكونوا هناك، هنا أو هناك وفي كلّ مكان.. الجواسيس! انهم في كل مكان.»

سألت: «جواسيس السير كاتو؟»

همس الرجل العجوز: «اصمت يا فتى! هل تتعجّل حتفك وأنت مازلت صغيراً؟ ألا تستطيع أن تهدأ؟»

جلس على مقعده وهزّ رأسه قائلاً: «نعم.. نعم، جواسيسه في كل مكان وفي كل الأوقات: في الصباح والمساء والليل.. في كل زمان ومكان.»

مد يده وقبض على يدي وهمس قائلاً: «أناشدك بكل أيام الجوع التي عشتها، لا تثق بأحدٍ أبداً. تدخل بيتاً وتظنّ نفسك بين أصدقاء، ولكنهم أعداء في الحقيقة. إنهم يخذلونك، يسلّمونك له.. لذلك الذي يعيش خلف البحيرة. يجب ألاّ تثق بأحد. لا تثق بي! كيف لك أن تثق بأني لن أدل الجواسيس عليك في اللحظة التي تخرج فيها من الباب؟»

قلت: «لا أعتقد أنك ستفعل ذلك.»

همس من جديد: «لا أحد يستطيع أن يكون على يقين. لا تستطيع أن تكون على يقين أبداً.»

جلس صامتاً يفكّر بعض الوقت، ثم قال: «لا، لن أدّل

الجواسيس عليك. ولكن لم يبق في هذه الأرض إلاّ قلّة لا تخون. ولم يبق إلاّ قلة تصنع السلاح.»

قال بامبو: «نحتاج إلى السلاح. ميو يحتاج إلى سيف.»

لم يجب الرجل العجوز. انما اتّجه إلى النافذة وفتحها وتناهت إلى أسماعنا صرخات الطيور كأنها تُعْوِل هناك في عتمة الليل.

قال لي الرجل العجوز: «أنصتَ! أنصت إليها تبكي وتنوح فوق البحيرة. هل تريد أن تصير واحداً من أولئك الذين يطيرون نائحين فوق البحيرة؟»

سألت: «ما نوع تلك الطيور؟»

همس الرجل العجوز قائلا: «إنها الطيور المسحورة. وأعتقد أنك تعرف من سَحَرها. أعتقد أنك تعرف من أسرها. وتعرف الآن مصير الذين يحاربون اللصوص وقطاع الطرق.»

أحزنني كلامه كثيراً. فتلك الطيور هي أخوَا نومو وأخت توتي وابنة الحائكة الصغيرة وكل الآخرين الذين أسرهم السير كاتو وسحرهم. آه، نعم سأقاتله سأقاتله بلا ريب!

عاد بامبو يقول: «ميو يحتاج إلى سيف. لا يمكن لأحد أن يقاتل بلا سيف.»

قلت للرجل العجوز مذكّراً: «لقد قُلْتَ إن هناك من يصنع السلاح.»

نظر إليّ عابساً وقال: «يبدو أنك مستعد حقاً للتفريط بحياتك.»

سألت مجدّداً: «أين أجد الناس الذين يصنعون السلاح؟»
أسرع الرجل العجوز إلى إغلاق النافذة وهو يقول: «اخفض صوتك! اخفض صوتك وإلاّ سمعنا الجواسيس!»
جرّ نفسه إلى الباب ووضع أذنه على خرم المفتاح وأنصت ثم قال: «لا أسمع شيئاً. ومع ذلك يمكن أن يكونوا هناك.. الجواسيس.. إنهم في كل مكان.»
مال إليّ وهمس في أذني: «اذهب إلى صانع السيوف وقل له إن «اينو» قد بعثك. قل له إنك تحتاج إلى سيف يستطيع أن يقطع في الصخر. قل له انك فارس من فاراوايلاند.»
نظر إليّ وقتاً طويلاً، ثم قال: «فتلك حقيقتك كما أعتقد.»
قال بامبو: «إنه كذلك حقاً. إنه فارس وأمير.. الأمير ميو من فاراوايلاند. ويجب أن يحصل على سيف.»
سألت: «أين أجد صانع السيوف؟»
أجاب الرجل العجوز: «تجده في «أعمق الكهوف» الواقع في أشد الجبال سواداً. اذهب عبر الغابة الميّتة. انطلق الآن!»
ذهب الى النافذة وفتحها من جديد. ومن ناحية البحيرة سمعت صيحات الطيور في غور الليل مرّة أخرى.
قال الرجل العجوز: « امض الآن أيّها الأمير ميو. سأجلس هنا وأسأل اللّه لك التوفيق. ولكن، لعلّي سأسمع غداً طائراً آخر ينوح فوق البحيرة.»

٨ . في الغابة الميّته

ما إن أغلقنا وراءنا باب كوخ إينو حتى سمعت صهيل ميراميس. كان يصهل بقوّة وبأسلوب يائس، وبدا كأنه يناديني: «ميو، أنْقِذني!»

شعرت كأن قلبي يتوقف عن النبض، وصحت: «ماذا يفعلون بميراميس يا بامبو. هل تسمع؟ ماذا يفعلون بميراميس؟»

قال بامبو: «اخفض صوتك! لقد أمسكوا به... الجواسيس...»

صرخت ولم آبه بمن يسمعني: «الجواسيس...أمسكوا بميراميس!»

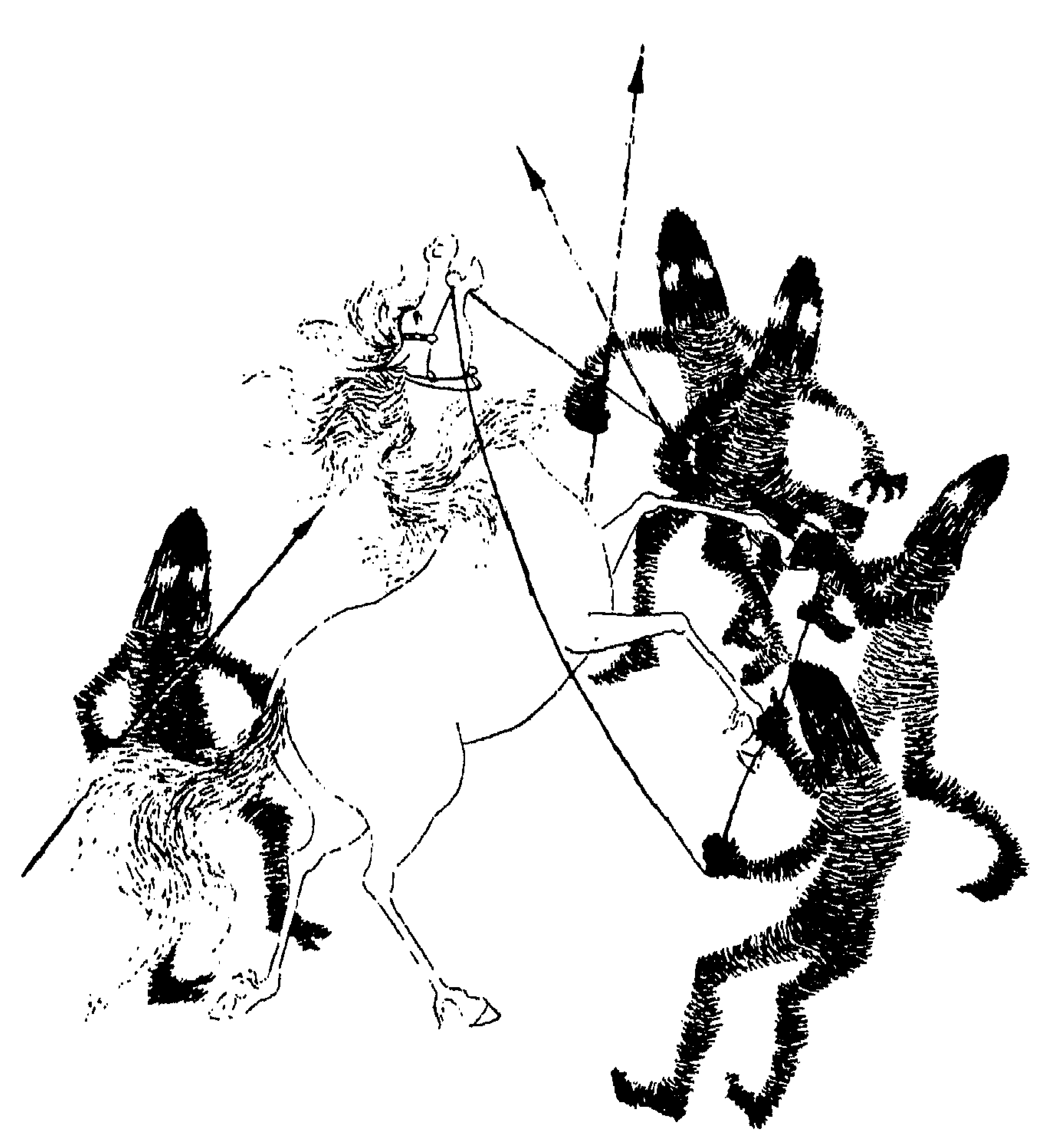
همس بامبو: «يجب أن تخفض صوتك، وإلاّ قبضوا علينا أيضاً.»

ولكني لم أستجب لكلامه. ميراميس، حصاني الوحيد! إنه حصاني العزيز، وليس غيره، ذاك الذي يحاولون سرقته! وهو أجمل وأروع حصان في العالم.

عدت أسمع صهيله وبدا كأنه ينادي «ميو، تعال وأنقذني!»

قلت لبامبو: «هيا بنا! يجب أن نرى ما يفعلون به.»

تسلقنا الصخور الحادّة العاليه في عتمة الليل، وانزلقنا وسقطنا



بينها وجرحت أصابعي على الحواف الحادّة، ولكني لم أشعر بشيء. كل ما كان يعنيني هو ميراميس.

وقفت على رأس صخره مرتفعة ورأيت ميراميس يلمع بلونه الأبيض في الظلمة ـ ميراميس، حصاني العزيز... أجمل خيول العالم

وأشدّها بياضاً!

كان يصهل بشدّة جامحه ويناضل للإفلات. ولكنْ كان يحيط به خمسة من الجواسيس المتشحين بالسواد، وقد تعلق اثنان منهم بلجامه. لا عجب أن يصاب ميراميس بالرعب، فقد كان منظر الجواسيس الخمسه المتشحين بالسواد رهيباً، وكانوا يتحدثون بأصوات مفزعة قبيحة. زحفت وبامبو إلى أقرب نقطة ممكنة منهم، وتمددنا خلف إحدى الصخور ننصت إلى كلامهم.

قال أحدهم: «الأفضل أن نأخذه عبر البحيرة الميّتة في القارب الأسود.»

قال آخر: «نعم، مباشرة عبر البحيرة الميّتة إلى السير كاتو.»

أردت أن أصرخ بهم أن يتركوا حصاني العزيز، ولكن كيف لي أن أفعل ذلك؟ من سيقاتل السير كاتو إذا قبض الجواسيس عليّ؟ آه! لماذا يجب عليّ أنا من دون الناس أن أقاتل السير كاتو! في تلك اللحظة تمنّيْتُ لو أنني لم آتِ. لماذا لم أبق مع والدي الملك في البيت حيث لا يستطيع أحد أن يأخذ منّي حصاني؟ سمعت الطيور المسحوره تصيح فوق البحيرة، ولكنّي لم آبه بها هذه المرّة. كل ما يعنيني الآن هو استرجاع حصاني ميراميس ذي العرف الذهبي.

قال أحد الجواسيس: «لا بدّ أن يكون شخص ما قد قطع الحدود على ظهر هذا الحصان الأبيض. العدوّ في وسطنا.»

قال آخر: «هذا أفضل، لأنه يُسَهّلُ علينا القبض عليه ويُسَهّلُ على السير كاتو أن يحطّمه ويدمّره.»

ارتعدت مفاصلي حين سمعت ذلك. فأنا العدو الذي قطع الحدود. وأنا الشخص الذي سيعمل السير كاتو على تحطيمه وتدميره. تمنّيتُ أكثر من السابق لو أنني لم آت هنا. وشعرت بشوق غامر إلى والدي الملك، وتساءلت عمّا اذا كان هو أيضاً في شوق إليّ وقلق عليّ. ليته كان هنا الآن ليساعدني! لو أتيح لي الآن أن أكلمه لبضعَ دقائق لقلت له: «أعلم أنك تريدني أن أقاتل السير كاتو. ولكن هل لك أن تعفيني من هذه المهمّة؟ ساعدني في استرجاع حصاني ميراميس ودعنا نغادر هذا المكان! إنك لتعلم أنني لم أملك حصاناً من قبل، وأنا مغرم به. وتعلم أنني كنت محروما من الأب. وإذا قبض السير كاتو عليّ فسأحرم منك إلى الأبد. خذني بعيداً من هنا. أريد الرجوع إلى بيتي في جزيرة الحقول الخضراء، مع ميراميس!»

عندئذ تهيأ لي أنني أسمع صوت والدي الملك. لعلّه كان خيالاً محضاً، ولكن تهيأ لي بالفعل أنني أسمع صوته يقول «ميو، يا ولدي!»

ذاك فقط ولا شيء غيره. ولكني أدركت أنه يريدني أن أكون شجاعاً رابط الجأش وألاّ أستلقي هناك باكياً كالأطفال حتى لو كانوا سيسلبونني حصاني ميراميس. إنني الآن فارس، هل تدركون ذلك؟ لم أعد ميو الذي اعتاد أن يبني الأكواخ الصغيرة في حديقة الورود ويمضي فوق التلال في «الحقول الخضراء» وهو يعزف بمزماره. لقد صرت فارساً، فارساً حقيقياً، لا فارساً مثل السير

كاتو. وعلى الفارس أن يكون شجاعاً، لا أن يبكي ويذرف الدموع.

وهكذا امتنعت عن البكاء حتى وأنا أشاهد الجواسيس يجرّون ميراميس إلى البحيرة ويدفعونه قسراً إلى قارب أسود كبير. لم أبك حتى حين سمعت ميراميس يصهل متفجّعاً كأنهم يجلدونه بالسياط. لم أبك حتى وأنا أرى الجواسيس يأخذون أماكنهم في القارب ويستعدون للتجذيف. سمعت صوت المجاذيف تضرب الماء الأسود. ثم أخذ الصوت يبتعد رويداً رويداً ويتلاشي، وكان آخر ما سمعته صهيلاً يائساً من ميراميس قادماً من مكان قصيّ في البحيرة قبل أن يختفي القارب عن الأنظار. ومع ذلك كلّه لم أبك. فقد صرت فارساً، ولا يليق بالفارس أن يبكي.

هل قلت إنني لم أبك؟ بلى لقد بكيت، تلك هي الحقيقة. استلقيت خلف الصخرة ووضعت رأسي على الأرض الصلبة وبكيت كما لم أبك في حياتي قط. الفارس الحقيقي يقول الحق. كنت أبكي من أجل ميراميس. وكنت كلما تذكرت عينيه الوديعتين الوفيتين ازددت بكاءً. لقد قالت السيدة الحائكة ان الخيول البيضاء المائة تبكي دماً من أجل فلْوها المسروق. لعلي أنا أيضاً كنت أبكي دماً من أجل ميراميس؛ فمَن يستطيع أن يعرف؟ كان الظلام حالك السواد و لم يكن في وسعي أن أرى. آه! حصاني ميراميس ذو العرف الذهبي! لقد ذهب إلى الأبد! هكذا اعتقدت.

انحنى بامبو عليّ ووضع يده على كتفي، وقال: «يكفي بكاءً!

دعنا نذهب إلى صانع السيوف. يجب أن تحصل على سيف.»

كنت راغباً في المزيد من البكاء، ولكني خنقت عَبَراتي وابتعلت غصّتي وتحاملت على نفسي بصعوبة بالغة. ومضينا نبحث عن صانع السيوف.

«امْضِيَا عبرَ الغابةِ الميّتة.» هذا ما قاله إينو. ولكن أين تقع الغابة الميّتة؟.

قلت لبامبو: «يجب أن نصل إلى صانع السيوف قبل أن ينتهي الليل. فالليل يسترنا من عيون الجواسيس. يجب أن نسرع عبر «الغابة الميّتة» هذه الليلة.»



مشينا فوق الصخور الحادّة المؤدّية إلى كوخ إينو. بدا الكوخ معتماً وصامتاً، ولم يعد هناك من يئنّ الآن. تابعنا المسير في عتمة الليل حتى وصلنا إلى غابة لا يتحرّك فيها الهواء، وليس فيها ورقة واحدة خضراء. لم يكن فيها غير جذوع أشجار سوداء ميّتة تتفرّع منها أغصان ميّتة سوداء كثيرة العقد.

حين دخلنا بين الأشجار قال بامبو: «لقد دخلنا الآن الغابة الميّتة.»

قلت: «نعم لقد *دخلناها* مؤكداً. ولكني لا أعتقد أننا *سنخرج* منها أبداً».

كان من السهل أن يضلّ الإنسان طريقه في الغابة. إنها من طراز الغابات التي يراها المرء أحياناً في الأحلام المزعجة، إذ يجد نفسه يمشي ويدور فيها عبثاً دون أن يكتشف طريق الخروج.

أمسك أحدنا بيد الآخر ونحن نتابع المسير في «الغابة الميّتة»، وشعرنا بالضياع والضآلة. كانت الأشجار الميّتة تنتصب متقاربة جداً حتى كان من الصعب علينا أحياناً أن ننفذ من بينها إلاّ أن نعصر أجسامنا عصراً.

قال بامبو: «أتمنّى لو لم تكن الأشجار متلاصقة إلى هذا الحدّ. أتمنى لو لم يكن الظلام بهذا السواد الحالك وأننا لسنا ضئيلين وحيدين هكذا!»

تابعنا المسير وقتاً طويلاً بلا توقف. أحياناً كنا نسمع الجواسيس المتّشحين بالسواد يتحدّثون عن بعد. لقد تأكد لي صحة كلام إينو

حين قال إن جواسيس السير كاتو في كل مكان. بدت الغابة الميّتة، كلّها تعجّ بهم. كنا نحبس أنفاسنا كلما سمعنا بعضهم بين الأشجار.

ولكنّا تابعنا المسير بلا توقف.

قال بامبو: « لا شك أنّ الليل طويل هنا في الغابة الميّتة. ولكني أعتقد أن الطريق الى صانع السيوف أطول.»

شرعت أقول: «بامبو! هل تعتقد أننا سنجدهُ ....»، ولم أكمل العبارة. لم أستطع أن أضيف كلمة واحدة، اذ أبصرت بصف من الجواسيس المتّشحين بالسواد يتقدّمون نحو موضعنا. أدركت أنها النهاية. كذلك أبصر بهم بامبو وضغط على يدي بشدّة. لم يكونوا قد أبصروا بنا حتى تلك اللحظة، ولكن ما يلبثون أن يصيروا عندنا، وعندئذ تحلّ النهاية. لن يعود بإمكاني بعد ذلك أن أقاتل السير كاتو. وفي الليلة القادمة سوف يسمع إينو طائرين جديدين ينوحان فوق البحيرة!

أخذ الجواسيس يقتربون منا أكثر فأكثر بينما وقفنا نحن جامدين هناك تماماً لا نجرو على الحركة. وهنا حدث شيء غريب. فقد انفتح لنا جذع شجرة قديم كان ينتصب وراءنا، وتنبهت الى أنه مجوّف الداخل. وقبل أن أدرك كيف حدث ذلك أسرعت وبامبو وحشرنا جسمينا داخل الجذع المجوّف وأخذنا نرتجف كأننا فرخين من الطيور أقبل عليها الصقر. في تلك اللحظة كان الجواسيس قد صاروا الى جانب مكاننا، وصار بإمكاننا أن نسمع ما يقولون.





قال آحدهم: «لقد سمعت شخصا يتكلم في الغابة الميّتة. من يتكلم في الغابة الميّتة؟»

قال آخر: «العدو في وسطنا. لا بدّ أنه صاحب الصوت التي سمعته.»

قال ثالث: «إذا كان العدو في الغابة الميّتة، فسنقبض عليه قريباً. فتّشوا! فتّشوا كلَّ مكان!»

سمعناهم يفتشون ويبحثون بين الأشجار. سمعنا وقع أقدامهم المخيف في الخارج، بينما نحن جاثمان هناك نشعر بالخوف والضآلة.

تابعوا البحث والتفتيش وقتاً طويلاً، ولكنهم لم يكتشفوا

مكاننا. ثم أخذت أصواتهم تبتعد وتختفي حتى لم نعد نسمعها. لقد أنجتنا الشجرة المجوّفة.

لماذا أنجتنا الشجرة المجوّفة؟ لم يكن في وسعي أن أفهم ذلك. هل السبب أن الغابة الميّتة كلّها تكره السير كاتو، ومن ثمّ فهي تحب أن تساعد الأنسان الذي جاء ليقاتله؟ لعلّ الشجرة الميّتة كانت في يوم ما شجرة خضراء وارفة فتيّة يانعة تهتز أوراقها الخضراء وتصدر حفيفاً حين تتنفس الريح على أغصانها. لا بد أن السير كاتو هو الذي لوى بهذه الأشجار وقتلها. لا أعتقد أن أي شجرة يمكن أن تغفر لمن يقتل أوراقها الخضراء. لهذا أعتقد أن هذه الشجرة قد أرادت أن تساعد الإنسان الذي جاء ليقاتل السير كاتو.

بعد أن زحفنا خارج الشجرة المجوّفة قلت: «شكراً لك أيتها الشجرة الطيّبة.» ولكن الشجرة لبثت صامتةً ميّتة ولم تجب.

عدنا نتابع المسير عبر الغابة الميّتة بلا توقف.

قال بامبو: «لقد أدركنا الفجر، ولم نجد بعد كهف صانع السيوف.»

نعم لقد انتهى الليل. ولكن الفجر هنا لم يكن صافياً ساطعاً كما هو في بلادنا. بل يأتي هنا مع ضوء رماديّ شاحب رهيب، فلا يكاد يختلف عن الليل. تذكرت بزوغ الشمس هناك في «جزيرة الحقول الخضراء» حيث كنت أخرج راكباً ميراميس وقد ابتل العشب بالندى وأخذ يبرق في نور الصباح. تابعت المشي. وفكّرت بميراميس حتى كدت أنسى المكان الذي أنا فيه. ولذا لم أفاجأ ولم

أخف أوّل الأمر حين سمعت وقع حوافر تقترب. «آه! ذاك ميراميس!»

هكذا خطر لي لأوّل وهلة. فقد كنت ما أزال مستغرقاً في ذكرياتي. ولكنّ بامبو شدّ ذراعي وهمس: «أنْصِتْ! الجواسيس يتجوّلون بخيولهم في الغابة الميّتة.»

عندئذ خرجت من غيبوبة أفكاري وأدركت أن النهاية قد حلّت. لا شيء ينجينا الآن. قريباً نرى الجواسيس المتشحين بالسواد قادمين عبر الأشجار، ولسوف يشاهدوننا. سوف يقبلون على خيولهم كالريح وينحنون ويلتقطوننا ويقذفوننا على خيولهم، ثم يطيرون بنا الى حصن السير كاتو. لن يعود بإمكاني أن أقاتل السير كاتو. وفي الليلة التالية سوف يسمع «إينو» طائرين جديدين ينوحان فوق البحيرة.

هذه هي النهاية مؤكداً. أخذ صوت الحوافر يقترب أكثر فأكثر، ثم حدث شيء غريب. انفتحت الأرض أمامنا وشاهدت هناك كهفاً. وقبل أن أعرف كيف حدث ذلك وجدتني وبامبو نجلس في الكهف وقد التصق جسمي بجسمه، وأخذنا نرتجف مثل أرنبين أقبل عليهما الثعلب.

حدث ذلك في الوقت المناسب. فقد سمعنا وقع الحوافر يزداد اقتراباً، وسمعنا الجواسيس يعتلون سقف الكهف الخارجي بالخيول فوق رؤوسنا تماماً. بل سقطت حفنه من تراب السقف علينا في الداخل. وتلاصقنا هناك ونحن نشعر بالخوف والضآلة.

فجأة ران الصمت و لم نعد نسمع شيئاً، كأنه لا يوجد جاسوس واحد في الغابة الميّتة!. تريّثنا وقتاً طويلاً مناسباً، ثم قلت: «أعتقد أننا نستطيع أن نخرج الآن.»

ولكن عندئذ سمعنا صوت الحوافر يقترب من جديد. لقد عاد الجواسيس. ومرّة أخرى دوّى وقع الحوافر فوق رؤوسنا، وسمعنا الجواسيس يتصايحون. نزلوا عن خيولهم وجلسوا على الأرض خارج الكوخ تماماً. كان باستطاعتنا أن نسمعهم بوضوح تام.

قال أحدهم:«إن أوامر السير كاتو تقضي بالقبض على العدو. يجب أن نقبض الليلة على العدوّ الذي جاء على ظهر الحصان الأبيض. هذه أوامر السير كاتو.»

قال آخر: «العدوّ في وسطنا. وينبغي ألاّ يكون من الصعب الإمساك به. فتّشوا في كل مكان!»

كانوا يجلسون هناك متقاربين يتحدّثون عن ضرورة القبض علينا، وتحيط بهم الأشجار الميّتة وخيولهم السوداء التي كانت تهدر وتطرق الأرض بأقدامها بأسلوب شرس.

قال أحد الجواسيس «فتّشوا! فتّشوا في كل مكان! ما هذه الفجوة في الأرض هنا؟»

أجابه آخر: «هنا كهف. لعلّ العدو يختبىء هنا. فتّشوا كلّ مكان!»

التصق كلّ منا بالآخر التصاقاً شديداً. إنها النهاية مؤكداً.

قال أحد الجواسيس «سأطعن برمحي عبر الشق. فإذا كان العدو

في الداخل نفذ الرمح فيه.»
رأينا رمحاً أسود يخترق الشقّ. كنا قد زحفنا إلى أقصى الخلف. ولكن الرمح كان طويلاً، وأخذ نصله المدبب الحادّ يقترب أكثر فأكثر. وجعل صاحبه يطعن به عبر الشقّ مرات ومرات. ولكنه لم يصبنا. إنما أصاب جدار الكهف بيني وبين بامبو دون أن يصيبنا.
قال الجواسيس في الخارج: «فتّشوا! فتّشوا كلّ الغابة الميّتة. أوامر السير كاتو تقضي بالقبض على العدوّ. ولكنّه ليس هنا. فتّشوا في كل مكان.»
وهكذا قفز الجواسيس على ظهور خيولهم السوداء وانطلقوا مبتعدين.
لقد نجونا. أنقذنا الكهف. وتساءلت: لماذا؟ ألأنّ الأرض نفسها تكره السير كاتو وتريد أن تساعد الأنسان الذي جاء ليقاتله؟ لعلّ العشب الأخضر الطري كان ينمو يوماً ما في هذه الأرض، وكان يبتل بالندى مع مطلع الفجر. لا بدّ أن يكون السير كاتو قد أنشفهُ وقتله. ولا أعتقد أن الأرض يمكن أن تغفر لمن يقتل أعشابها الطريّة. لهذا أعتقد أن الأرض أرادت حماية الأنسان الذي جاء ليقاتل السير كاتو.
عندما خرجنا من الكوخ قلت: «شكراً لك أيتها الأرض الطيّبة.» ولكنها لم تجب. بَقِيَتْ صامتةً واختفى الكهف.
ثم تابعنا المسير من جديد حتى بلغنا نهاية «الغابة الميّتة»! كانت الجبال والصخور العالية تنتصب أمامنا. بدت محاولاتنا بلا جدوى.



لقد عدنا إلى الصخور المحيطة بالبحيرة. شعرت وبامبو بالقنوط. لم تعد هناك جدوى من المتابعة. لن نتمكن من العثور على صانع السيوف. لقد أمضينا ليلة كاملة نمشي في «الغابة الميّتة»، لنجد أنفسنا أخيراً في المكان الذي بدأنا منه. هناك يقف كوخ «إينو» ضئيلاً رمادياً متداعياً. كان يسند نفسه إلى الجدار الصخري حتى لا ينهار. كانت الصخرة التي يستند إليها الكوخ عالية وفاحمة

السواد.

قال بامبو: «أعتقد أن هذا هو أشدّ الجبال سواداً في العالم.»

«أشدّ الجبال سواداً! ذاك هو المكان الذي يفترض أن نجد فيه كهف صانع السيوف! هذا ما قاله إينو: «أعمق الكهوف في أشدّ الجبال سواداً.»

بادرت بالقول: «بامبو! سوف ترى...» وتوقفت فوراً قبل أن أكمل العبارة. من جديد أدركت أن النهاية قد حلّت، لأنهم يندفعون الآن، خارجين من الغابة الميّتة ـ خط طويل من الجواسيس المتّشحين بالسواد. بعضهم كان يركض، بينما كان الآخرون على صهوات جيادهم، وكانوا جميعاً يتجهون نحونا بسرعة هائلة. لقد شاهدونا، وكانوا يتصايحون بأصواتهم الغريبة المنفّرة: «العدو في وسطنا. ها هو هناك! أمسكوا به! أوامر السير كاتو تقضي بالقبض على العدوّ.»

وقفت وبامبو هناك وقد ألصقنا ظهرينا بالجدار الصخري، بينما أخذ الجواسيس يقتربون منا أكثر فأكثر.

نعم، لقد حلّت النهاية! لن يكون بوسعي بعد الآن أن أقاتل السير كاتو. شعرت بحزن عميق. أردت أن أستلقي على الأرض وأبكي. في الليلة التالية سوف يسمع «إينو» صوت طائر ينوح فوق البحيرة ـ ينوح بصوت أشدّ ارتفاعاً وأكثر تفجّعاً من جميع الطيور الأخرى. وسوف يقف إينو أمام نافذته ويقول: «ذاك هو الأمير ميو يطير هناك.»

٩. أعمق الكهوف في أشد الجبال سواداً

ولكن عندئذ حدث شيء غريب. فقد انزاحت الصخرة التي كنا نستند إليها. وقبل ان نعرف كيف حدث ذلك وجدنا أنفسنا واقفَيْن داخل الجبل نرتجف مثل حَمَلَيْن أقبل عليهما الذئب.

لم يكن ثمة حاجة للخوف، فقد صرنا في داخل الجبل، والجواسيس خارجه. وكان باب الكوخ قد انغلق ولم يبق هناك مدخل. ليس بوسعهم أن يمسكوا بنا هنا.

ولكنّا سمعناهم يتصايحون في الخارج: «فتّشوا! فتّشوا في كل مكان! كان العدوُّ في وسطنا، ولكنه الآن اختفى. فتّشوا في كل مكان!».

قلت: «نعم، يمكنكم أن تتابعوا التفتيش كما تشاوون. ولكنكم لن تجدونا أبداً.»

شعرت وبامبو بالسعادة، وطفقنا نضحك بقوّة داخل الكهف. ثم خطر ميراميس على بالي فتوقفت عن الضحك.

أجَلْنا النظر فيما حولنا. كنا في كهف كبير. كان مظلماً، ولكنه لم يكن مظلماً تماماً. فقد شاهدنا ضوءاً خافتاً لم نعرف مصدره. ذلك أن عدداً من المسالك يتشعّب من الكوخ إلى جوف الجبل.

لقد أَخبَرَنا إينو أن صانع السيوف يعيش في أعمق الكهوف في أشدّ الجبال سواداً. لعلّ أحد هذه المسالك يؤدّي إلى صانع السيوف! ولكن أيّها؟! لم نكن نعرف. لعّله سيكون علينا أن نمشي وقتاً طويلاً قبل أن نجده.

قال بامبو: «لقد دخلنا أشدّ الجبال سواداً على أية حال.»

قلت: «لقد دخلناه مؤكداً، ولكنّي لا أعتقد أننا سنعرف طريق الخروج منه.»

كان من السهل أن يضلّ المرء طريقه في جوف الجبل. كان من طراز الجبال التي يراها الإنسان أحياناً في أحلامه المزعجة، إذ يجد نفسه يمشي في مسالك غريبة مظلمة دون أن يكتشف طريق الخروج.

أمسك كل منا بيد الآخر ومشينا داخل الجبل. شعرنا بالضآلة والضياع، وبأن الطريق إلى أعمق الكهوف سيكون طويلاً.

قال بامبو: «أتمنى لو لم يكن الجبل مخيفاً. أتمنّى لو لم تكن المسالك فيه مظلمة إلى هذا الحدّ ولم نكن نحن ضئيلين وحيدين هكذا!.»

مشينا ومشينا بلا توقف. تفرّعت الطرق وتشعّبت في كل اتجاه. احياناً كان الضوء الخافت الذي شاهدناه يزداد قوّة فنرى بعض الأمتار أمامنا، ولكنه في أحيان أخرى كان يضعف حتى نكاد ألاّ نرى شيئاً أمامنا. كان سقف الطريق ينخفض أحياناً حتى يتوجب علينا الانحناء، وأحياناً يرتفع عالياً كَصَرْحٍ كبير. كانت جدران



الجبل تقطر ماءً والجوّ قارص البرد، فجمعنا رداءَيْنا حول جسمينا المرتجفين.

قال بامبو: «قد لا نتمكن من الخروج من هذا الجبل، وقد لا نجد صانع السيوف أبداً.»

شعرنا بالجوع الشديد، فأكلنا القليل من الخبز الذي يبدّد الجوع. اكتفينا بالقليل لأننا لم نكن نعرف كم ستطول رحلتنا.

تابعنا المشي أثناء الأكل. حين فرغت من قطعتي وصلنا إلى مكان تتشعّب منه ثلاث طرق. وجدت ماءً ينحدر من جدار

المعبر، فتوقفت وشربت القليل منه. لم يكن طعمه طيباً، ولكن لم يكن هناك غيره. بعد أن فرغت من الشرب استدرت إلى بامبو. ولكنّ بامبو لم يكن هناك! لقد اختفى! لعلّه لم يَتَنبّه إلى أنني توقفت للشرب، فتابع طريقه عبر إحدى الطرق المتشعّبة مقدّراً أنني أمشي وراءَه.

في البدء لم أشعر بالخوف. وقفت أمام الطرق المتشعّبة حائراً متسائلاً: ترى أي هذه الطرق سلك بامبو؟ ولكن، لا بدّ أنه لم يبتعد حتى الآن إلاّ بضعة خطوات. ولا أحتاج إلى أكثر من أن أناديه. هكذا قدّرت.

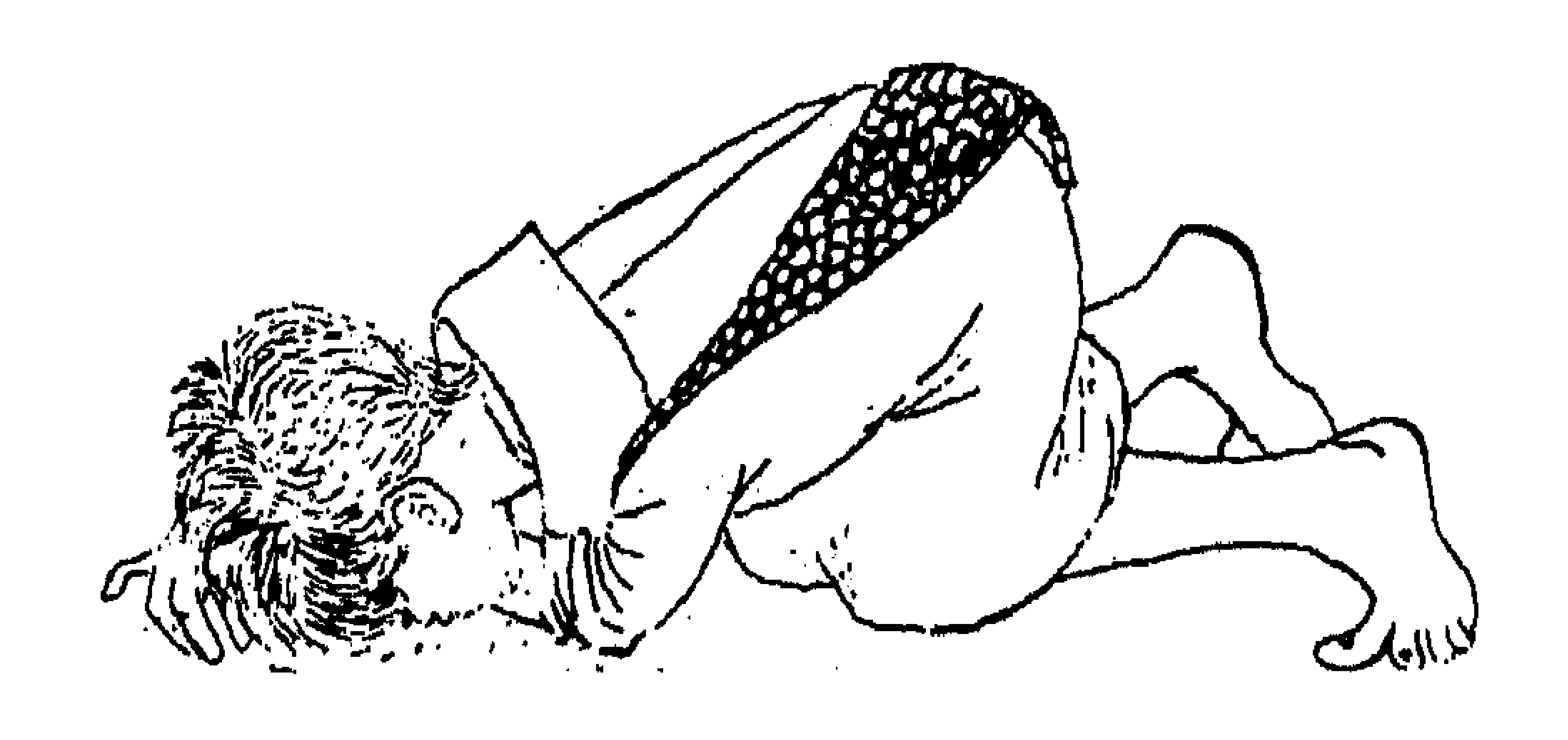
صحت بأعلى صوتي: «بامبو! أين أنت؟» ولكنّ صيحتي خرجت خافتة مخنوقة لا تزيد على همسة خفيفة. ما هذا الجبل الغريب! لقد قَتَلَ صيحتي وأحالها إلى مجرد همس. وعادت همستي إليّ في صورة صدى يتردّد في جوف الجبل: «بامبو! أين أنت؟ بامبو! أين أنت؟»

عندئذ شعرت بالخوف. حاولت الصياح بصوت أعلى، ولكن الجبل استمّر يحيلها همساً مخنوقاً. لم أصدّق أن ذاك هو صوتي. كان أشبه بصوت إنسان آخر، إنسان يجلس هناك بعيداً في جوف الجبل ويستهزيء بي.

آه! كم كنت خائفاً! اندفعت في الطريق الواقعة إلى الشمال بضعة خطوات، ثم أسرعت عائداً إلى نقطة التشعّب، وركضت عبر الطريق التي تقع إلى اليمين، ولكني سارعت إلى العودة منها لأدخل

في الطريق الوسطى. «أي هذه الطرق سلكت يا بامبو؟» لم أجرؤ على الصياح من جديد، فقد كان الهمس مفزعاً. ولكنّي قدّرت أن بامبو لا بدّ أن يشعر بمدى حاجتي إليه فيرتدّ عائداً إليّ. تشعّبت الطريق من جديد إلى طرقٍ فرعية جديدة مظلمة في كل اتجاه. وأخذت أركض أماماً وخلفاً وأنظر هنا وهناك. حاولت ألاّ أبكي. فأنا فارس كما تعلمون. ولكن الأمر كان أقسى وأثقل من أن أقوم بدور الفارس في تلك اللحظة. تصوّرت بامبو يدور راكضا في معبر آخر ويشعر بالقلق مثلي وينادي، فاستلقيت على الأرض الصلبة وبكيت بقدر ما بكيت حين أخذ الجواسيس ميراميس. ما عاد عندي ميراميس ولا بامبو. صرت وحيداً بلا رفيق ولا مؤنس. أخذت أبكي بكاء متصلاً متمنياً لو أنني لم آت أبداً، ولم أستطع أن أستوعب كيف شاء والدي الملك لي أن أخرج لأقاتل السير كاتو. تمنّيت لو كان والدي عندي في تلك الساعة لأخبره بذلك.

لو كان باستطاعتي أن أحدّثه الآن لقلت له: «انظر كيف صرت



وحيداً الآن. لقد اختفى بامبو، وهو كما تعلم أعزّ اصدقائي بعد أن باعَدَت الأيام بيني وبين «بن». الآن فقدت بامبو أيضاً. صرت وحيداً. وكل ذلك لأنك تريدني أن أقاتل السير كاتو.»

لأوّل مرّة كدت أعتقد أن والدي الملك لم يكن منصفاً حين تركني أخاطر كل هذه المخاطرة. ولكن، بينما كنت استلقي هناك وأبكي خُيّل إليّ أنني أسمع صوت والدي الملك. ربّما كان ذلك محض خيال. ولكن بدا لي أنني أسمعه حقاً.

قال: «ميو، يا ولدي!»

ذاك فقط ولا شيء غيره. ولكنني شعرت بأنه يطمئنني ألاّ ضرورة للحزن. وهكذا قدّرت أن عليّ أن أجد بامبو على الرغم من كل شيء.

نهضت من الأرض، وعندئذ سقط شيء ما من جيبي. إنه المزمار الخشبي الذي صنعه نومو لي وعزفت به عند موقد النار في جزيرة الحقول الخضراء.

قلت في نفسي: «سأعزف بالمزمار. سأعزف تلك المقطوعة القديمة التي علّمنا إياها نومو. لقد تواعدت وبامبو أن نعزف تلك المقطوعة إذا حدث أن أضاع أحدنا الآخر.»

قرّبت المزمار من شفتيّ، ولكنني لم أجرؤ على النفخ في البدء. خشيت ألاّ يصدر منه غير صوت خافت مخنوق. ولكن لا بدّ من المحاولة على كل حال. وهكذا بدأت في العزف.

وخرج الصوت واضحاً قوياً جميلاً في داخل الجبل! بل لعلّه

فاق في جماله عزفنا في جزيرة الحقول الخضراء.

عزفت المقطوعة كلّها، ثم أنصتّ. من مكان بعيد بعيد في جوف الجبل أجابت أنغام واضحة صافية. وصلت خافتةً، ولكنها كانت واضحة، وأدركت أن ذلك هو بامبو يجيبني. لم أشعر في حياتي بمثل تلك السعادة.

تابعت العزف، وعلى الرغم من سعادتي لم أستطع التوقف عن البكاء. مضيت في جوف الجبل أعزف وأبكي وأنصت الى مزمار بامبو. كان صوت مزماره يقترب أحياناً ويبتعد أحياناً أخرى. حاولت تتبع اللحن. ثم أخذ اللحن القديم يقترب أكثر فأكثر ويزداد وضوحاً وعلواً. وفجأة ظهر بامبو أمامي في الطريق المعتمة. مددت يدي ولمسته. ثم لففت ذراعي حول كتفه. أردت أن أتأكد أنه هو حقاً. لقد كان هو حقاً، صديقي العزيز... أعزّ الأصدقاء، بامبو!

قال بامبو: «اذا كُتِبَ لي أن أرى نومو مرّة أخرى فَلَسَوف أشكره مجدّداً على المزمارين اللذين صنعهما لنا.»

قلت: «وأنا كذلك!»

وعندئذٍ خطر لي أننا قد لا نرى نومو من جديد.

قلت: «أي الطرق سنسلك الآن يا بامبو.»

قال بامبو: «لا فرق عندي طالما أننا سنمضي معاً.»

كان هذا شعوري أيضاً. استأنفنا المسير بلا توقف، ولم نعد نشعر بالضآلة والضياع. كنا معاً نمشي ونعزف بمزمارينا. وصعدت المعزوفة القديمة واضحة في جوف أشد الجبال سواداً. وبدا أن

المعزوفة تريد أن تشدّ أزرنا وتفرّج عنا وتثبّت قَلْبَينا.

أخذت الطريق تنحدر بشدّة وبصورةٍ مطّردة. وبدأ الضوء الخافت الذي شاهدناه سابقاً يزداد وضوحاً وقوّة. بدا أنه يصدر عن نار موقدة. نعم! لقد كان بالفعل يصدر عن نار موقدة. وكان وميضها يتراقص على الجدران الصخريّة السوداء.

أخذنا نقترب من موضع النار بصورة مطّردة بينما تابعنا العزف بمزمارينا. كنا نعزف اللحن القديم حين وجدنا أنفسنا أمام كهف صانع السيوف.

كان الكهف محلاً للحدادة. ورأينا هناك موقداً كبيراً مشتعلاً وسنداناً، وإلى جانب السندان وقف رجل ضخم الجثة. أعتقد أنه أضخم رجل وأقوى رجل رأيته في حياتي. كان له شعر كثّ أحمر ولحيةٌ حمراء هائلة. كان ملطخاً بالسخام الأسود، وكانت يداه ضخمتين ومكسوّتين بالسواد من أثر النار والدخان، ولا أظنّ أنني رأيت في حياتي يدين بتلك الضخامة وبذلك السواد. وكان له حاجبان كثّان غليظان أشعثان. حين دخلنا كهفه وقف ساكناً يقلّب فينا النظر من تحت حاجبيه الكثّين، وقد أخذته الدهشة والاستغراب.

سأل قائلاً: «من ذا الذي يعزف المزمار في جبلي؟»

أجاب بامبو: «فارس مع مرافقه. فارس من فاروايلاند. الأمير ميو هو الذي يعزف بمزماره في جبلك.»

أقبل صانع السيوف علي، ولمس جبيني بإصبعه المكسو



«من ذا الذي يعزف المزمار في جبلي؟»

بالسخام الأسود، وبدا مندهشاً.

قال: «ما أنْضَرَ وجهك! ما أشدّ صفاء عينيك! وما أجمل عزفك في جوف الجبل.»

قلت: «جئت أطلب منك سيفاً. بعثني إينو.»

سأل صانع السيوف: «ولماذا تريد السيف؟»

قلت: «أُريدُ أن أقاتِل السير كاتو.»

في اللحظة التي نَطَقْتُ فيها الكلمة أطلق صانع السيوف زأرة هائلة لم أسمع مثلها من قبل. صاحَ بصوت دَوّى في جوف الجبل: «السير كاتو! السير كاتو! الموتُ له!»

سمعت دوياً يتردد بعيداً في المعابر المظلمة. حينٍ زأر صانع السيوف لم تتحول زأرته إلى همس مخنوق. لا، أبداً! بل دوّت وتردد صداها بقوّة تفوق الرعد بين الجدران الصخريّة.

وقف صانع السيوف وقد شبك يديه الضخمتين السوداوين، وانعكس ضوء النار على وجهه الذي بدا مكفهراً بالغضب.

طفق يصيح مردّداً: «السير كاتو! الموتُ له!»

كذلك انعكس وهج النار على صف من السيوف الحادّة المعلّقة على جدران الكهف. كانت تلمع وتبرق، وبدت مثيرة للفزع. اقتربت منها لأتمعّن فيها. توقف صانع السيوف عن الصراخ ولحق بي.

قال: «هل ترى سيوفي الحادّة القاطعة؟ لقد صنعتها كلّها للسير كاتو. فأنا صانع سيوفه».

قلت: «إذا كنت صانع سيوفه، فما بالك تصيح: الموت للسير كاتو؟»

ضمّ قبضتيه السوداوين بقوّة هائلة وقال: «لأنّه لا أحد يكره السير كاتو أكثر من صانع سيوفه.»

هنا تنبّهت إلى أنه كان يجرّ وراءه سلسلة حديديّة طويلة ثقيلة تقيده بجدار الكهف. وكانت السلسة تحدث صريراً كلما مشى في أرض الكوخ.

سألت: «لماذا أنت مقيّد هكذا في هذا الجبل. ولماذا لا تُلين حديد السلسة على النار ثم تكسرها على سندانك؟»

أجاب: «السير كاتو هو الذي قيّدني. وليس هناك نار تستطيع أن تلين سلاسله ولا مطرقة تستطيع كسرها. إن سلاسل الكراهية التي يملكها السير كاتو لا تتحطّم بيسر.»

سألت: «لماذا فرض عليك أن تُقيّد بسلاسل الكراهية؟»

أجاب: «لأنني أصنع سيوفه. أصنع السيوف التي يقتل بها الأبرياء والطيبين. لهذا أوقفني السير كاتو بأقوى ما عنده من السلاسل. فهو لا يستغني عن سيوفي.»

نظر إليّ صانع السيوف بعينين متّقدتين وقال: «إنني أمكث هنا في كوخي أصنع السيوف للسير كاتو ليلاً ونهاراً. هذا ما يعرفه. ولكنْ، ثمة شيء واحد لا يعرفه. انظر هنا!»

جرّ صانع السيوف سلاسله إلى أشدّ زوايا كوخه عتمةً، واستخرج سيفاً من شقّ صخرة. سطع السيف بيده كشعلة نار.

«منذ ألف ألف سنة وأنا أحاول صنع سيف يقطع في الصخر. ولم أنجح في ذلك إلاّ هذه الليلة – إلاّ هذه الليلة بالذات.»

رفع السيف وأهوى به، وبضربة واحدة فقط شقّ خرقاً كبيراً في جدار الجبل الصخريّ.

همهم قائلاً: «هذا هو سيفي النبيل.. شعلة النار.. سيفي الذي سيقطع عبر الصخر!»

سألت: «ما حاجتك إلى سيف يقطع في الصخر؟»

أجاب: «سأخبرك. هذا السيف لم يُصْنع لقتل الأبرياء والطيّبين. هذا السيف يترصّد بالسير كاتو. إن له قلباً من حجر. ألا تعرف ذلك؟»

أجبت: «كلا. لا أعرف الكثير عن السير كاتو. كل ما أعرفه أنّي جئت لأقاتله.»

قال صانع السيوف: «إن له قلبا من الحجر ومخلباً من الحديد.»

قلت: «مخلب من الحديد؟»

قال: «ألا تعرف؟ لقد فقد يده اليمنى فاستبدل بها مخلباً من الحديد.»

سألت: «ماذا يفعل بمخلب الحديد؟»

أجاب: «ينتزع بها القلوب من صدور الناس. ضربة واحدة بالمخلب الحديدي تطيح بالقلب. ثم يعطيهم بدلاً منها قلوباً من حجر. كل من يحيط به ويعمل معه له قلب من الحجر. هؤلاء أعوانه وخدمه.»

سَرَتْ في جسمي رجفة من أثر الكلام. وصرت أكثر تلهّفاً وتعجّلاً لمقاتلة السير كاتو.

كان صانع السيوف يقف إلى جانبي. عبث بالسيف بيديه الملطختين بالسّخام. لا شك عندي أنه يعتبر السيف أعزّ مقتنياته.

رجوته قائلاً: «أرجوك! أعطني السيف الذي يقطع في الصخر. أرجوك! أعطني سيفك لأقاتل به السير كاتو.»

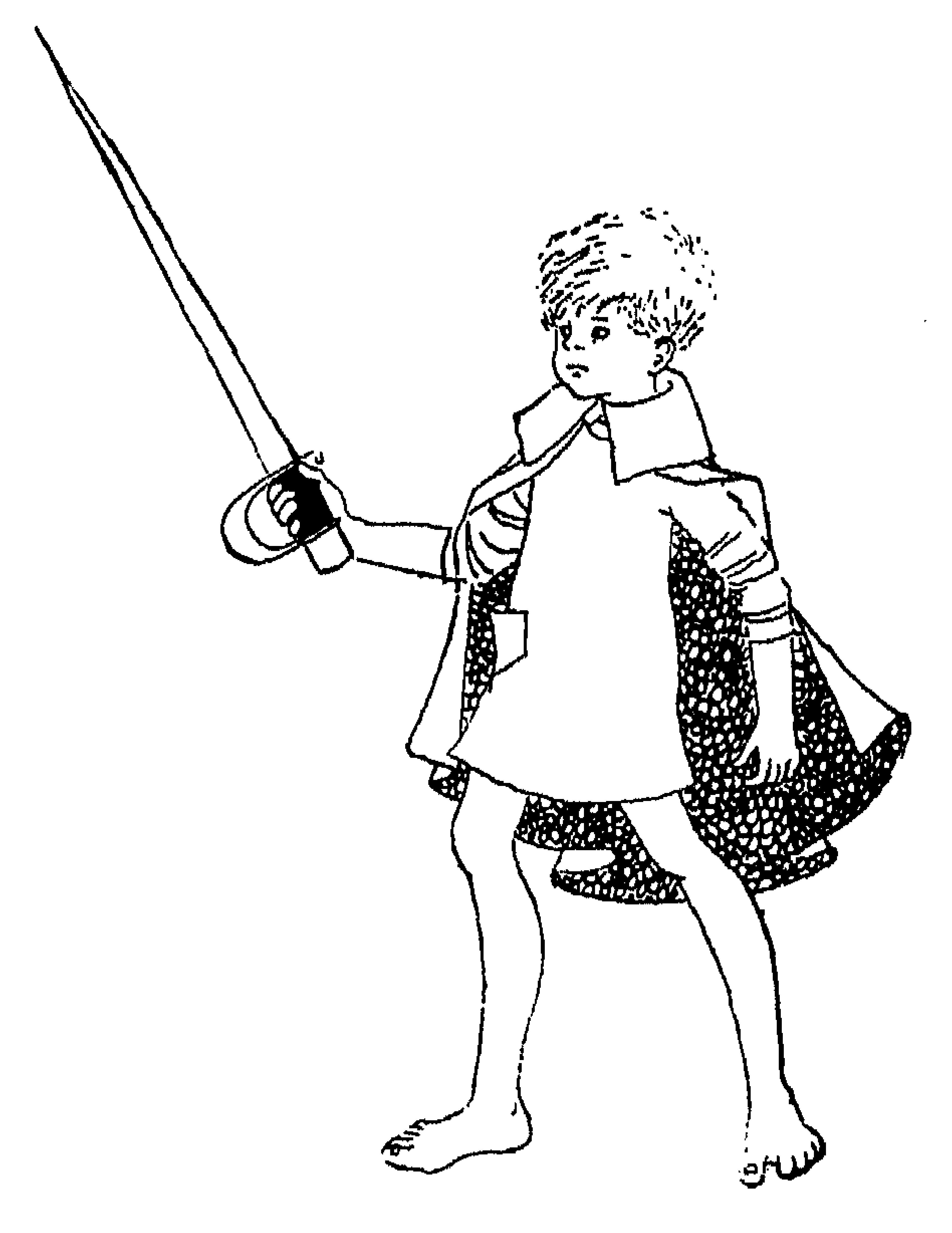
لبث صانع السيوف صامتاً برهة من الوقت وهو ينظر إليّ. وأخيراً قال: «أجل سأعطيك سيفي! ستحصل على شعلة النار التي تخصّني. وما ذاك إلاّ لأن لك عينين صافيتين، ولأنك تعزف ألحاناً بديعة في جوف الجبل.»

وضع السيف البرّاق المتوهّج في يدي. وبدا أن النار تسري منه في جسدي كلّه، وتبعث فيه قوّة عظيمة.

ثم ذهب صانع السيوف إلى جدار الكهف وفتح فيه كوّة صغيرة. شعرت بريح قارصة البرد تتدفق إلى الداخل، وسمعت صوت أمواج عارمة.

قال صانع السيوف: «السير كاتو يعرف الكثير. ولكنه لا يعرف أنني ثقبت الجبل وفتحت كوّة في جدار سجني. عملت سنوات طويلة في ثَقْبِ الجدار حتى فتحت طاقة أَسْتَرِقُ منها النظر.»

ذهبت إلى موضع الكوّة ونظرت من خلالها. استطعت أن أرى البحيرة الميّتة وحصن السير كاتو الذي يقع على شاطئها. كان الليل قد حلّ من جديد. وبدا الحصن أسود وموحشاً ومخيفاً كما رأيته



آخر مرّة. وكالسابق كان ثمّة نافذة واحدة منه تتوهج كعين شرّيرة ترصد ماء البحيرة الميّتة.

جاء بامبو ووقف إلى جانبي. لم ننبس بكلمة. إنما أخذنا نفكّر بالمعركة الآتية.

وقف صانع السيوف وراءنا، وسمعت صوته يغمغم قائلاً:

«إنها آتية...إنها آتية... إنها آتية قريباً ـ معركة السير كاتو الأخيرة.»

١٠. المخلب الحديدي

كانت الغيوم داكنة سوداء فوق البحيرة الميّتة، وكان صيحات الطيور المسحورة تملأ الفضاء. كانت الامواج تصنع زبداً داكناً ـ إنها الأمواج التي ستحمل قاربنا عبر البحيرة الميّتة، ولعلّها ستحطّمه على الصخور الحادّة الواقعة تحت حصن السير كاتو.

وقف صانع السيوف عند الكوّة الصخريّة وأخذ يراقبنا ونحن نحلّ الحبل الذي رُبط به قارب صغير. كان القارب راسياً في تجويف مائي صغير داخل في الجبل، ويختفي بين الجدران الصخريّة العالية، ويتصل بالبحيرة الميّتة.

قال صانع السيوف: «السير كاتو يعرف الكثير. ولكنه لا يعرف أن البحيرة الميّتة قد حتّت الصخر عبر الجبل. إنه لا يعرف شيئاً عن التجويف السريّ ولا عن القارب الذي يرسو في الماء تحت الكوّة التي ثقبتها في جدار الكوخ الصخري.»

سألت: «لماذا تحتفظ بقارب طالما أنك لا تستطيع التجذيف؟»

أجاب صانع السيوف: «بل أستطيع. أُخْرِجُ جسمي من الكوّة وأهبط إلى القارب ساحباً سلاسلي الطويلة إلىَ أقصاها. ثم أجذّف في التجويف المائي مسافة تساوي طول ثلاثة قوارب.»

كان يقف خلف الكوّة التي ثقبها في الجبل. ويراقبنا ونحن نحلّ

رباط القارب. كان الظلام شديداً فلا أستطيع رؤيته بوضوح. ولكن كان في استطاعتي أن أسمعه يضحك. كانت ضحكة غريبة مخيفة. وبدا كأنه لا يعرف كيف يضحك.

قال صانع السيوف: «السير كاتو يعرف الكثير. ولكنْ، ثمة شيء آخر لا يعرفه. انه لا يعرف ما هي نوع الحمولة التي سينقلها قاربي عبر البحيرة الميِّتة هذه الليلة.»

قلت له: «هناك أيضاَ شيء آخر لا تعرفه أنت. إنك لا تعرف ما إذا كنت سترى قاربك مرّة أخرى. ربّما انتهى به المصير إلى قاع البحيرة هذه الليلة. ربّما انتهى به الحال أن يصير بمثابة مهد تهزه الأمواج في قاع البحيرة الميّتة. وفي المهد ينام صبيان: بامبو وأنا. فماذا ستقول عندئذ؟»

أطلق صانع السيوف تنهيدة عميقة وقال: «كل ما سأقوله: نَمّ يا صغيري! أيها الأمير ميو! نم نوماً مريحاً في مهدك الذي تهزه الأمواج!»

بدأت في التجْذيف، وغاب صانع السيوف عن بصري. لقد اختفى في الظلمة الحالكة؛ ولكنه نادى في أثرنا قبل أن نخرج من القناة الضيّقة التي تصل بين التجويف المائيّ السريّ والبحيرة الميّتة. سمعته ينادي بصوت وديع هذه المرّة: «احترس أيّها الأمير ميو عندما تشاهد المخلب الحديدي. إذا لم تكن مستعداً بسيفك في تلك اللحظة، فستكون نهاية الأمير ميو.»

«نهاية الأمير ميو. نهاية الأمير ميو.» ردّدت الجدران الصخرّية



صدى العبارة بما يشبه الهمس الحزين. في تلك اللحظة قذفت أمواج البحيرة الميّتة نفسها على قاربنا وسحبته بعيداً عن جبل صانع السيوف.

مضينا فوق الماء المتدفق العميق. وإذ بنا قد ابتعدنا كثيراً عن البرّ، وشعرنا كلانا، بامبو وأنا، بالضآلة والضياع.

قال بامبو: «أتمنى لو لم يكن قاربنا بهذا الصغر. أتمنّى لو لم تكن البحيرة بهذا العمق والأمواج بهذه الشراسة! أتمنّى لو لم نكن ضئيلين وحيدين هكذا!»

آه، لكم كانت أمواج البحيرة الميّتة عاتية! لم أرَ في حياتي موجاً بهذا العتوّ. لقد كانت تقذف نفسها علينا؛ تصفعنا؛ تلطمنا؛ تطوّحُ بنا؛ وتسلمنا لأمواج أخرى جديدة عاتية. لم يكن ثمة جدوى مَن التجذيف. تمسكنا بالمجذافين بأقصى طاقتنا. ولكن موجة شرسة عاتية لطمتنا والقارب فأطاحت بأحد المجذافين وابتلعه الماء. ثم أقبلت موجة أخرى مُزْبدة فحطّمت المجذاف الثاني. كانت الأمواج العنيفة المزبدة الهادرة ترتفع نحو السماءِ وتتلاطم حولنا. كانت تجيش وتمور حول قاربنا الذي كان ضئيلاً هَشّاً مثلنا.

قال بامبو: «صرنا الآن بلا مجاذيف. وقريباً نفقد القارب أيضاً. عندما تقذف الأمواج قاربنا على صخور السير كاتو فسوف يتحطم، وعندئذ لن نعود بحاجة إلى قارب.»

أقبلت الطيورُ المسحورة طائرةً من كل ناحية. وأخذت تحوم حولنا صائحةً نائحة. طارت قريبة منّا. واستطعت أن أرى عيونها

الصغيرة الحزينة في الظلام.

سألت أحدها: «هل أنت شقيق نومو؟»

وسألت آخر: «هل أنت أخت توتي الصغيرة»

ولكنها لم تجب. إنما نظرت إليّ بعيونها الصغيرة اللامعة الحزينة، وكانت صيحاتها مفعمة بالأسى والقنوط.

على الرغم من أننا كنا نبحر بلا مجاذيف، وكان قاربنا أسير الموج، فقد حملتنا الأمواج رأساً نحو حصن السير كاتو، هذا هو المكان الذي أرادت الأمواج أخذنا إليه لتحطمنا هناك على الصخور. كانت تريد أن نموت هناك تحت أقدام السير كاتو.

أخذنا نقترب بسرعة من الصخور الخطرة... أخذنا نقترب أكثر فأكثر من الحصن الأسود ذي العين الشريرة المحدّقة. اندفع القارب بسرعة متزايدة مطّردة بينما ازداد الموج عتواً وجموحاً.

قال بامبو: «انتهينا. إنها النهاية يا ميو!»

عندئذ حدث شيء غريب. ففي اللحظة التي شعرنا فيها بدنو الأجل سكتت الأمواج تماما، وحملت قاربنا بلطف وهدوء مجنّبة إياه الصخور الحادّة الخطرة، وعوّمته بلطف نحو الجرف الصخريّ الذي يقع أدنى حصن السير كاتو.

لماذا بدأت الأمواج عالية عاتية جامحة أوّل الأمر، ثم هدأت وسكتت؟ لم أستطع فهم ذلك. هل السبب أنها تكره السير كاتو وأرادت أن تساعد الانسان الذي جاء ليقاتله؟ لعلّ البحيرة الميّتة كانت في يوم ما بحيرة صافية زرقاء تستلقي بين ضفاف آمنة. لعلّها

كانت بحيرة صغيرة تخترقها الشمس بشعاعها في أيام الصيف الجميلة، وكانت أمواجها الرقيقة الوديعة تداعب الصخور المحاذية. لعلّه قد مرّ زمان كان الأطفال فيه يأتون هنا ليستحموا بماء البحيرة ويلعبوا على الشواطىء البديعة، وكانت أصوات ضحكاتهم المرحة ترنّ عبر الماء، بعكس الصيحات الحزينة التي تصدرها الطيور المسحورة الآن. أعتقد أن هذا هو السبب الذي جعل الأمواج تصخب بالهدير العالي حولنا، ثم تصنع حاجزاً عالياً من الزبد يخفينا عن العين الشرّيرة المحدّقة في الحصن المنتصب في الأعلى.

قلت: «شكراً لك أيتها البحيرة الطيّبة! شكراً لك أيتها الأمواج العاتية!»

ولكن، لم يعد هناك موج. كان الماء ساكناً صامتاً أسود اللون، ولم يجب.

هناك في الأعلى فوق رؤوسنا، وفوق الجرف الصخري الشديد الانحدار، كان ينتصب حصن السير كاتو. صرنا الآن على الشاطيء المحاذي له.... أقرب إليه من أي وقت سابق. وهذه الليلة هي ليلة المعركة. وتساءلت في نفسي عمّا إذا كان الناس الذين انتظروا ألف ألف عام يعرفون أن هذه الليلة ستكون ليلة المعركة النهائية، وعمّا إذا كانوا يفكّرون بي. هل كان والدي الملك يفكّر بي في تلك الساعة؟ رجوت أن يكون كذلك. بل أعرف أنه كذلك. أعرف أنه يجلس الآن بعيداً في مكان ما، ويفكّر بي متحسّراً متلهفاً، ويهمس لنفسه: «ميو، يا ولدي!»

أمسكت بسيفي، وشعرت كأني أمسك بيدي شعلة من نار. ستكون المعركة التي سأخوضها معركة رهيبة. ولم يعد باستطاعتي أن أنتظر المزيد من الوقت. تلهفت على ملاقاة السير كاتو حتى لو كنت سأموت. يجب أن تحصل المعركة الآن، حتى لو كانت ستنتهي بمصرعي.

قال بامبو: «أنا جائع يا ميو!»

استخرجت ما تبقّي معي من الخبز الذي يبدّد الجوع. وأكلناه بجانب الجرف الصخري أسفل حصن السير كاتو. عندما فرغنا من أكل الخبز شعرنا بالشبع والقوّة والعافية والحيوية. ولكنه كان آخر ما معنا من الخبز. ولا ندري متى سيتاح لنا أن نحصل على غيره.

قلت لبامبو: «يجب أن نتسلّق الجرف الصخري. إنها الطريقة الوحيدة للوصول إلى حصن السير كاتو.»

قال بامبو: «نعم، أعتقد ذلك.»

وهكذا بدأنا بتسلّق الجرف الصخري الذي كان يرتفع ارتفاعاً كبيراً فوق رؤوسنا، وكان شديد الانحدار.

قال بامبو: «أتمنى لو لم تكن الصخور بهذا الانحدار. أتمنى لو لم يكن الليل مظلماً إلى هذا الحدّ ولم نكن ضئيلين وحيدين هكذا!»

تابعنا التسلّق وقتاً طويلاً. كانت المهمّة شديدة الصعوبة، وكان علينا أن نتسلّق ببطء شديد. ولكنا تشبثنا بأيدينا وأقدامنا. وجدنا بعض الفجوات وبعض النتوءات التي يمكن أن نثبت عليها أقدامنا.

كنا نتشبّث ونتسلق. أحياناً كان يعتريني الخوف حتى أقول لنفسي: «لا أستطيع المتابعة. سأسقط بلا شك. وتلك ستكون النهاية». ولكن في اللحظة الأخيرة، كنت أجد دائماً شيئاً أتشبّث به، بدا كأن الصّخر نفسه يضع سناداً تحت قدمي في اللحظة التي أوشك فيها على السقوط. لعلّ الصخّر نفسه يكره السير كاتو، ويريد أن يساعد الأنسان الذي جاء ليقاتله.

كان حصن السير كاتو ينتصب شاهقاً نحو السماء. وكان علينا أن نصعد ذلك العلوّ الشاهق لنبلغ سور الحصن الذي كان يبدأ من قمّة الجرف الصخري.

همست لبامبو: «سنصل هناك قريباً. سوف نتسلّق السور ثم...»

سمعت أصواتاً! كانت تصدر عن جاسوسين يتحادثان في الليل، وكانا يقومان بالحراسة أعلى السور.

قال أحدهما: «فتّش! فتّش في كل مكان! أوامر السير كاتو تقضي بالقبض على العدو. يجب القبض على العدو الذي جاء على ظهر الحصان الأبيض. تلك أوامر السير كاتو: فتّشوا كهوف الجبل؛ فتّشوا بين أشجار الغابات؛ فتّشوا الماء والهواء؛ فتّشوا قريباً وبعيداً؛ فتّشوا في كل مكان!»

قال الآخر: «فتّش قريباً! فتّش قريباً! نحن الذين يفتّشون قريباً. لعلّ العدو في وسطنا، لعلّه يتسلّق صخر الحصن هذه الليلة. فتّش في كل مكان!»

كاد قلبي يتوقف عن الخفقان حين رأيته يوقد مشعله. إذا أضاء مشْعَلُه أدنى السور فَسَوف يشاهدنا. وإذا شاهدنا فستكون النهاية. كَل ما عليه أن يفعل عندئذ هو أن يمدّ رمحه نحونا ويدفعنا به. بعد ذلك لا يعود بحاجة إلى التفتيش عن العدو الذي جاء راكباً الحصان الأبيض. لن يكون في الأمر غير صيحة قصيرة نطلقها ونحن نسقط في البحيرة الميّتة، ونختفي إلى الأبد.

قال أحد الجاسوسين: «فتّش! فتّش في كل مكان! وجّه مشعلَكَ إلى الصخر الذي يقوم عليه الحصن. لعلّ العدوّ يتسلّق في هذه اللحظة. فتّش في كل مكان!»

رفع الجاسوس الآخر مشعله وانحنى به فوق السور. سقط الضوء على صفحة الجرف الصخري، فجثمنا هناك نرتجف مثل فأرين أقبل عليهما القط. زحف ضوء المشعل على صفحة السور وبدأ يقترب منا.

همس بامبو: «انتهينا. إنها النهاية يا ميو!»

عندئذ حدث شيء غريب. أقبل سرب من الطيور من جهة البحيرة. أقبلت الطيور المسحورة كلها وهي تصفّق بأجنحتها تصفيقا سريعاً عالياً. طار أحدهما مباشرة نحو المشعل ولطمه. فسقط من يد الجاسوس. شاهدنا شريطاً من النار يهبط عبر الفضاء، وسمعنا هسيساً بعيداً إذ التطم المشعل بماء البحيرة وغرق فيه. ولكنا شاهدنا كذلك شريطاً آخر من النار هابطاً نحو الماء! ذاك كان الطائر الذي أنقذنا. لقد احترق جناحاه وهوى بجناحيه المشتعلين

نحو البحيرة الميّتة وغرق فيها.

شعرنا بالأسى العميق تجاه الطائر.

همست: «شكراً أيها الطائر الصغير المسكين!» همست بذلك على الرغم من إدراكي أنه لن يسمع ولن يجيب أبداً.

شعرت بالرغبة في البكاء على الطائر. ولكن كان عليّ أن أركّز تفكيري في الجواسيس الآن. لم نبلغ القمّة بعد. وما زال أمامنا الكثير من الأخطار.

غضب الجاسوسان غضباً شديداً من الطائر. كانا يقفان أعلى السور فوقنا. كان بوسعي أن أرى القلنسوة الشنيعة السوداء التي تغطّي رأس الواحد منهما، وأن أسمع صوتهما القبيح.

كانا يقولان: «فتّش! فتّش في كل مكان! لعلّ العدوّ بعيد من هنا. لعلّه يتسلّق الحصن في مكان آخر. فتّش في كل مكان!»

سارا مبتعدين بضعة خطوات، وأخذا ينظران في اتجاه آخر.

همست لبامبو: «الآن!»

أستأنفنا التسلّق بسرعة كبيرة نحو قمّة الجرف الصخريّ حيث يوجد حصن السير كاتو. ثم توقّفنا ساكنين خوفاً من أن يَتَنَبّه الجواسيس إلينا، وضغطنا جسمينا على سور حصن السير كاتو.

همس بامبو: «كيف لنا أن ندخل حصن السير كاتو؟ كيف سَيَتَأَتّى لنا أن ندخل أشد الحصون سواداً في العالم.»

ما إن قال ذلك حتى انفتح باب في السور إلى جانبنا بالضبط. انفتح باب أسود بهدوء تام. لم يكن ثمّة صوت إطلاقاً. لم يكن ثمّة



غير صمت مطبق مثير للفزع أكثر من أي صمت آخر. تمنيت لو أنَّ الباب قد أحدث صريراً حين انفتح! فأي صوت مهما كان ضئيلاً أهون من هذا الصمت الرهيب. ولكنه كان أشدّ الأبواب صمتاً.

أمسك أحدنا بيد الآخر، ودخلنا حصن السير كاتو. وشعرنا بالضآلة والضياع أكثر من أيٍ وقت مضى.

ليس ثمّة عتمة أشدّ سواداً من هذه العتمة. ليس ثمّة برودة أشدّ من هذه البرودة. وليس ثمّة صمت أشدّ رهبة وايحاشاً من هذا الصمت في حصن السير كاتو.

كان الباب يؤدّي مباشرة إلى درج ملتوٍ يصعد إلى الأعلى. كان أشد الأدراج التي شاهدتها في حياتي ظلاّماً.

همس بامبو: «أتمنّى لو لم يكن الظلام بهذه الرهبة! أتمنّى لو لم يكن السير كاتو بهذه القسوة ولم نكن نحن ضئيلين وحيدين هكذا!»

قبضت على سيفي وصعدت الدرج يتبعني بامبو.

لقد رأيت سابقاً في بعض أحلامي أني أسير في بيوت معتمة غريبة عليّ - بيوت غريبة موحشة مفزعة معتمة. وكنت أجد نفسي في غرف سوداء تنغلق عليّ فلا أستطيع التنفّس. وأرى أرضيات الغرف تنفتح تحت قدميّ إلى هوّة سحيقة سوداء، وأرى الأدراج تنهار تحت قدميّ. ولكن، لا يوجد حتى في الكوابيس بيوت أكثر وحشة ورهبة من حصن السير كاتو.

تابعنا الصعود على الأدراج العالية الملتوية وقتاً طويلاً، ولم تكن

لدينا أدنى فكرة عمّا سنجده هناك في نهايتها.

همس بامبو من ورائي: «أنا خائف يا ميو.» استدرت لآخذه بيده. ولكن، في اللحظة نفسها اختفى بامبو من أمامي. اختفى عبر الجدار، ولم أعِ كيف حدث ذلك. وهكذا وجدتني وحيداً على سلّم الدرج. كانت الوحدة هذه المرّة أثقل بآلاف المّرات من وحدتي حين أضعت بامبو في جبل صانع السيوف؛ بل كانت هذه الوحدة أشدّ الآف المرات من أيّة تجربة سابقة. لم أجرؤ على الصياح، ولكني تحسست بيديّ المرتجفتين سطح الجدار الذي اختفى منه بامبو. بكيت وهمست: «أين أنت يا بامبو؟ عد إليّ يا بامبو؟»

ولكن الجدار كان بارداً وقاسيا تحت يديّ. لم يظهر فيه شقّ واحد يمكن أن يكون بامبو قد نفذ منه. كان الصمت المطبق يلف المكان. لم يأت ردّ من بامبو حين همست وبكيت. كان الصمت المطبق يلف المكان.

لا أظن أن أحداً في العالم كان في مثل وحدتي حين استأنفت صعود الدرج وحدي من جديد. ولا أظنّ أن قدماً يمكن أن تكون أثقل من قدمي التي أخذت أنقلها على الدرج بصعوبة بالغة. كانت الدرجات عالية وكثيرة جداً.

لقد كانت كثيرة جداً... ولكنّ واحدة منها كانت الدرجة الأخيرة. لم أعرف أنها الدرجة الأخيرة حين وقفت عليها. لقد بلغت القمّة؛ إنك لا تعرف الدرجة الأخيرة مسبقاً حين تصعد



درجاً في العتمة. ولذا رفعت قدمي لأضعها على الدرجة التالية، ولكن لم تكن هناك درجة تالية! أطلقت صيحة وسقطت، ولكني بحركة سريعة مددت يدي أبحث عن شيء أتمسّك به. وتمكنت من الامساك بالدرجة الأخيرة العليا. تعلّقت بها بينما كان جسمي يتدلّى ويتأرجح في الهواء، وأخذت أبحث بقدمي عن شيء أقف عليه. ولكني لم أجد شيئاً. كنت أتدلّى فوق هوّة سوداء لا قاع لها. لم يكن هناك من يمكن أن يساعدني. قريباً سأهوي، وتلك ستكون النهاية. هكذا خطر لي. صحت: «النجدة! النجدة!»

سمعت أحداً يصعد السلّم. هل هو بامبو؟

همست: «بامبو! عزيزي بامبو! ساعدني!»

لم يكن باستطاعتي رؤيته في تلك العتمة. لم يكن باستطاعتي أن أرى وجهه الطيب وعينيه الوديعتين اللتين تشبهان عينيْ «بن».

همس صوت ظننته صوت بامبو: «نعم، خذ بيدي! خذ بيدي وسوف أساعدك!»

أخذت بيده. ولكنها لم تكن يداً! كانت مخلباً حديدّياً!

١١. لم أر من قبل سيفاً مخيفاً كهذا في حصني.

لعلّي سأتمكن في يوم من الأيام أن أنسى السير كاتو: وجهه المرعب وعينيه المخيفتين ومخلبه الحديدي الرهيب. إنني أتطلع إلى ذلك اليوم. عندئذ سيكون بإمكاني أيضاً أن أنسى غرفته المرعبة.

كان للسيّر كاتو غرفة في حصنه حيث الهواء ثقيل مشبع بروح الشرّ. ذلك لأن تلك الغرفة كانت المكان الذي يقضي فيه نهاره وليله، يدبّر مكائده ويضع خططه الخبيثة. كان يقضي الأيام هناك، اليوم تلوَ الآخر، يخطط ويدبّر. كان هواء الغرفة مشبعاً بروح الشرّ حتى شعرت بالاختناق، وكان يتدفق في موجات فيقتل كل ما هو جميل في الخارج وكل ما هو حيّ، ويجفف الأغصان والأزهار والأعشاب. كان ينتشر ويمتد كستار خبيث يحجب ضوء الشمس، حتى لا يكون نهار حقيقي، بل ظلام فقط، أو شيء كالليل. لم يكن عجب إذن أن تتوهّج نافذة الغرفة كعين شرّيرة تطلّ على ماء البحيرة الميّتة. كانت روح السير كاتو الخبيثة الشرّيرة هي التي تتّقد عبر النافذة حين يكون داخل الغرفة. كان يقضي الليل والنهار هناك يضع خططه الشريرة.

إنها الغرفة التي أُخذْتُ إليها بعد أن قبض السير كاتو عليّ، حين كنتُ في حاجة إلى استَعمال كلتا يديّ، فلم يكن بوسعي أن أستعمل

السيف. أمسك جواسيسه بي وجرّوني أمامه.

وجدت بامبو قد سبقني إلى هناك، وقد بدا شاحباً قلقاً متوتراً. حين رآني همس قائلاً: «إنها النهاية يا ميو!»

دخل السير كاتو، فرأيناه الآن بوضوح تام، بكل ما في مظهره ووجهه من العنف والخبث والقسوة. لم يقل شيئاً، إنما أخذ ينظر إلينا ويتمعّن بنا. تدفقت طاقته الشريرة نحونا وأحاطت بنا كنهر قارص البرودة. زحفت فوقنا كنار محرقة. زحفت على أيدينا ووجوهنا ولسعت عيوننا وعبرت مع أنفاسنا إلى رئتينا. شعرت بموجات من طاقته الشرّيرة تغزو جسدي وتنفذ فيه. خارت قواي من تأثير تلك الطاقة حتى لم يعد من الممكن أن أرفع سيفي مهما حاولت.

قام الجواسيس بتسليم سيفي إلى السير كاتو، ولحظت هنا أنه التقط أنفاسه حين شاهد السيف.

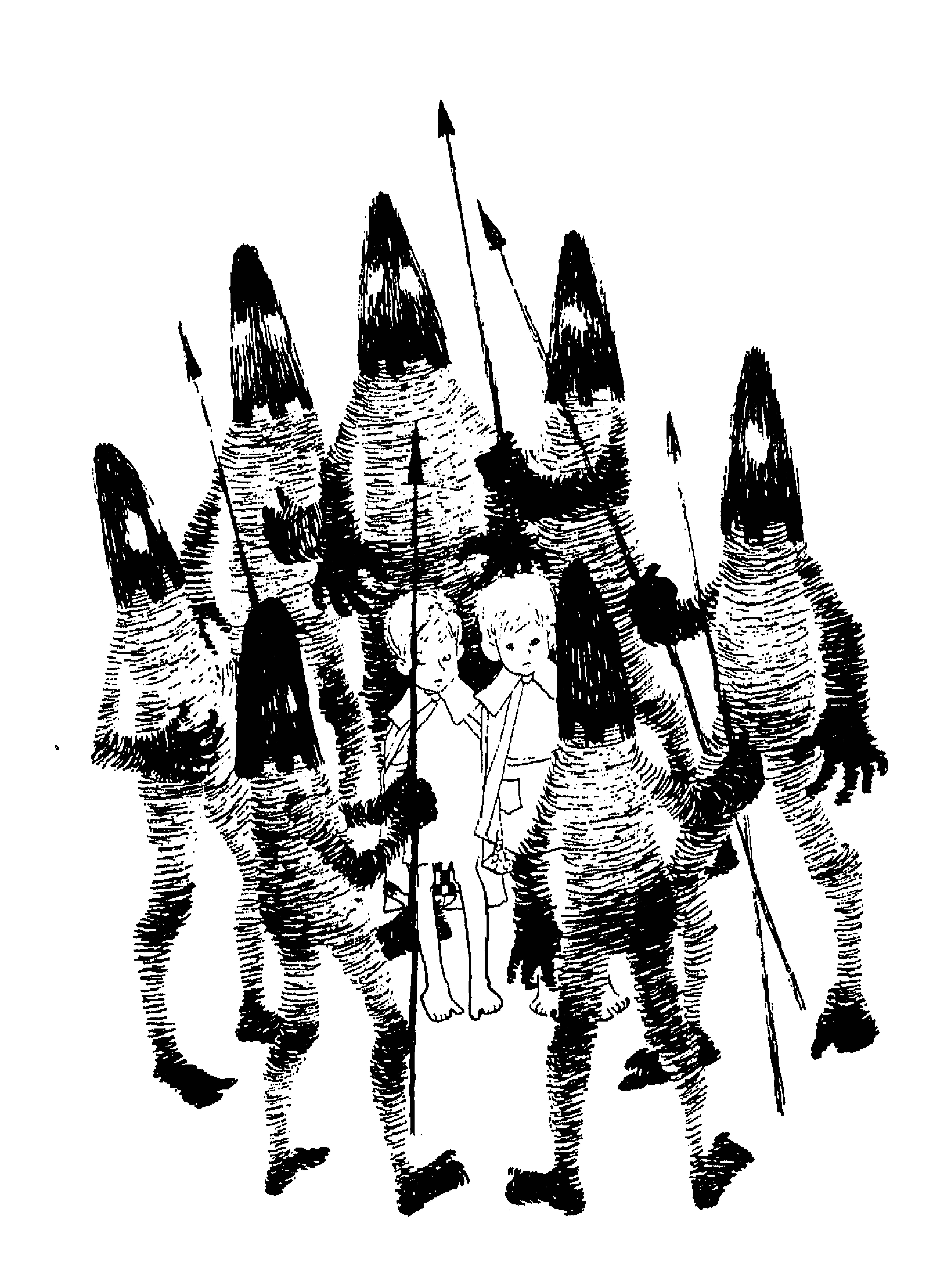
قال للجواسيس: «لم أر من قبل سيفاً مخيفاً كهذا في حصني.»

مشى إلى النافذة ووقف هناك يروز السيف بيده.

قال: «ماذا عساي أفعل به؟ الأبرياء والطيّبون لا يُقْتلون بسيف كهذا. فما عساي أفعل به إذن؟»

راقبني بعينيه المخيفتين اللتين تشبهان عَينيْ أفعى. وأدرك مدى رغبتي في استرجاع السيف.

قال: «سأغرقه في البحيرة الميّتة، سأغرقه في أعمق منطقة في البحيرة الميّتة. إذ إنه لم يوجد في حصني سيف مخيف هكذا من قبل.»



رفع السيف وقذف به عبر النافذة. وشاهدته يتطوّح في الهواء. لألف ألف عام عمل صانع السيوف في صنع هذا السيف الذي يقطع في الصخر. لألف ألف عام مكث الناس ينتظرون أملاً في أن آتي وأقضي على السير كاتو. وها هو الآن يقذف السيف إلى البحيرة الميّتة، ولن يكون باستطاعتي أن أراه ثانية.

جاء السير كاتو ووقف أمامنا. كادت طاقة الشرّ فيه أن تخنقني حين اقترب إلى ذلك الحدّ.

قال: «والآن ماذا عسايَ أفعل بهذين العدوّين اللذين قطعا مسافة طويلة ليقتلاني؟ لا بدّ من التفكير. أستطيع أن أحوّلهما إلى طائرين، ليطيرا نائحين ألف ألف سنة فوق البحيرة الميّتة.» أرسل نظرة مرعبة من فوق رؤوسنا بينما كان يفكّر.

قال: «أجَلْ! أستطيع أن أفعل ذاك. أو لعلّي أنتزع قلبيهما وأبدلهما قلبَيْن من الحجر. بذلك يصبحان من أتباعي.»

كدت أصرخ قائلاً: «أرجوك! أفضل أن أصير طائراً.» قدّرت أنه لا شيء أسوأ من أن يصير لي قلب من حجر. ولكني حافظت على صمتي. فقد أدركت أنني لوطلبت منه أن يجعلني طائراً فسوف يعطيني بدلاً من ذلك قلباً من حجر.

قلّب السير كاتو فينا النظر بتلك العينين المخيفتين اللتين تشبهان عيني أفعى، وقال: «أو لعلّي أحبسهما في برج الحصن إلى أن يموتا من الجوع. عندي الآن ما يكفي من الطيور، وما يكفي من الخدم. أعتقد أني سأحبس هذين العدوّين في البرج حتى يموتا من الجوع.»

أخذ يذرع أرض الغرفة وهو يفكّر بعمق. وكانت كلّ فكرة من أفكاره تجعل الهواء مثقلاً بمزيد من الخبث وروح الشرّ.

قال: «في حصني تموتان من الجوع في ليلة واحدة فقط، لأن الليل هنا طويل جدا، والجوع رهيب.»

توقف أمامي، ووضع مخلبه الحديدي المخيف على كتفي، وقال: «أعرفك أيها الأمير ميو! عرفت أنك قد جئت في اللحظة التي رأيت فيها حصانك الأبيض، أمضيت الوقت هنا جالساً في انتظارك. وها أنت قد جئت. كنت تعتقد أن هذه ستكون ليلة المعركة!»

مال علي وهمس في أذني: «كنت تعتقد أن هذه ستكون ليلة المعركة! ولكن خاب ظنّك أيها الأمير ميو! هذه ليلة الجوع! وعندما تنقضي الليلة لن يبقى في برجي غير قليل من العظام الصغيرة الشاحبة. تلك ستكون ما قد تبقّى من الأمير ميو ومرافقه.»

نقر بمخلبه الحديدي على الطاولة الحجرية في وسط الغرفة، فدخل الكثير من الجواسيس الآخرين.

أشار إلينا بمخلبه الحديدي وقال: «أبقوهما في البرج! ألقوهما في داخل البرج ذي الأقفال السبعة. ضعوا سبعة وسبعين جاسوساً للحراسة في كلّ قاعة وسلّم ومعبرٍ يقع بين غرفتي والبرج.»

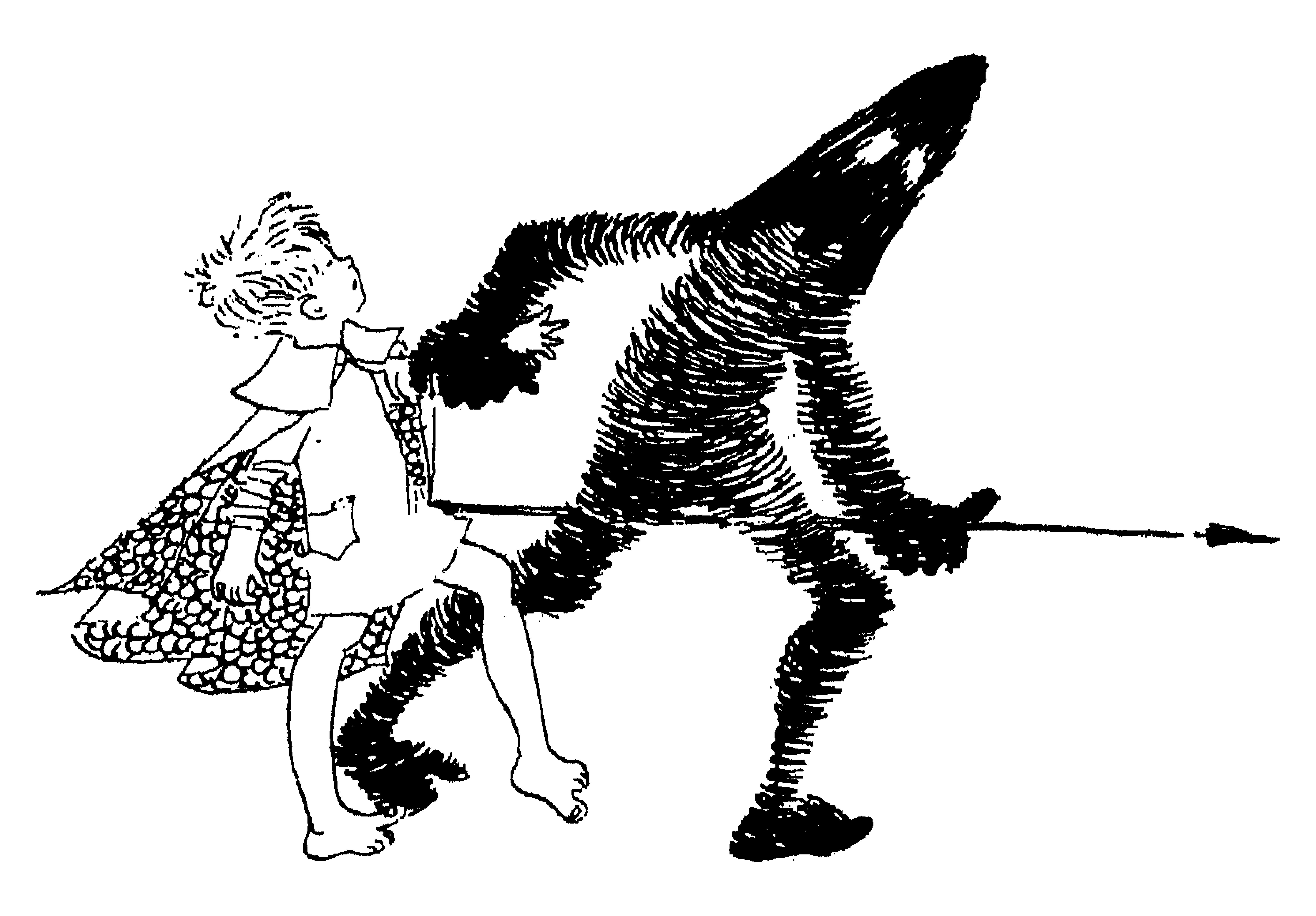
جلس أمام الطاولة وتابع قائلا: «أريد أن أجلس هنا في راحة وهدوء أضع خططي الخبيثة، ولا أريد أيّ إزعاج آخر من الأمير ميو. عندما ينقضي الليل سأصعد وألقي نظرة على العظام الصغيرة

البيضاء في برجي. وداعاً أيها الأمير ميو! نوماً هادئاً في «برج الجوع»!؟»

أمسك الجواسيس بي وبيامبو، وجرّونا عبر البرج المرتفع حيث الموت في انتظارنا هناك. كان قد تم توزيع الجواسيس في كل مكان من القاعات والأدراج والمعابر لحراسة الطريق بين غرفة السير كاتو والدّرج. هل كان خائفاً مني الى ذلك الحدّ حتى يحتاج الى كل ذلك العدد من الحرّاس؟ هل كان خائفاً إلى ذلك الحدّ من واحد لا سيف معه وسيُلقى وراء سبعة أقفال مع وجود سبعة وسبعين حارساً في الخارج؟

ضغط الجواسيس على ذراعَيْنا بشدّة وهم يسحبوننا الى سجننا. مشينا وقتاً طويلاً في الحصن الأسود الضخم. في أحد الأماكن مررنا بنافذة ذات قضبان، واستطعنا أن نرى من خلالها ساحة القلعة. في وسطها كان يقف حصان مربوط ـ حصان أسود يقف الى جانبه فِلْوٌ أسود صغير. أحزنني أن أرى ذلك الحصان. فقد جعلني أفكّر بميراميس الذي لن أراه من جديد أبداً. وتساءلت في نفسي عمّا فعلوه به. وعما إذا كان الآن ميّتاً. ولكن الجاسوس دفعني بشدّة، ولم يعد لديّ وقت للتفكير بميراميس.

وصلنا الى البرج الذي سنقضي فيه ليلتنا الأخيرة. فُتِح الباب الحديدي الثقيل، وقُذِفَ بنا الى الداخل. ثم أُغْلِقَ الباب مع طرقة عالية. وسمعنا الجواسيس يديرون المفتاح سبع مرّات. صرت وبامبو وحيدين في الغرفة.



كانت الغرفة زنزانة دائريّة ذات جدران صخرية سميكة. رأينا في أحد الجدران كوّة صغيرة مغطاة بشبك من القضبان الحديديّة. واستطعنا أن نسمع من خلالها صيحات الطيور المسحورة الحزينة تعول فوق البحيرة الميّتة.

جلسنا على الأرض. وشعرنا بالضآلة والخوف، وأدركنا أننا سنموت قبل انقضاء الليل.

قال بامبو: «أتمنى لو لم يكن الموت بهذه الصعوبة. أتمنّى لو لم يكن الموت بهذه الصعوبة ولم نكن ضئيلين وحيدين هكذا!»

أمسك كل منا بيد الآخر بينما كنا نجلس على الأرض الصخريّة الباردة. وجاء الجوع. لم يكن كأي جوع آخر. أخذ الجوع يقرضنا وبدا كأنه يمزّقنا إرباً. لقد امتصّ كل ما في دمائنا من طاقة حتى صار غاية ما نريد هو أن نستلقي وننام ولانصحو بعد ذلك أبداً. ولكنا قاومنا رغبتنا العارمة بالنوم، وبدأنا نتحدث عن فاراوايلاند بينما كنا ننتظر الموت.

فكّرت بوالدي الملك ففاضت عيناي بالدموع. ولكنّ الجوع كان قد أفرغ قوتي كلها فجرت الدموع بهدوء على خدّيّ. بكى بامبو أيضاً.. بهدوء مثلي.

همس بامبو: «أتمنّى لو لم تكن فاراوايلاند بعيدة إلى ذلك الحدّ! أتمنّى لو لم تكن فاراوايلاند بعيدة إلى ذلك الحدّ ولم نكن نحن ضئيلين وحيدين هكذا!»

قلت: «هل تذكر يا بامبو حين كنا نمشي فوق التلال ونعزف بمزمارينا؟ هل تذكر يا بامبو؟»

قال بامبو بحزن: «أذكر. ولكن ذلك كان منذ زمن طويل.»

قلت: «نستطيع أن نعزف بمزمارينا هنا أيضاً. نستطيع أن نعزف اللحن القديم حتى يغلبنا الجوع ونغرق في النوم.»

همس بامبو: «أجل. دعنا نعزف مرّة أخرى!»

أخرجنا مزمارينا، وحملناهما بصعوبة بالغة. ولكنْ، على الرغم من ضعفنا الشديد تمكّنا من عزف المقطوعة القديمة. بكى بامبو كثيراً وهو يعزف، وجرت الدموع بهدوء على خدّيه. لعلّي بكيت



بالقدر نفسه... لا أدري. خرج صوت اللحن القديم جميلاً، إلا أنه كان ضعيفاً خافتاً. كأنه كان يدرك أيضاً أنه سيموت قريباً بموتنا. وعلى الرغم من أن عزفنا كان خافتاً إلاّ أن الطيور المسحورة تمكّنت من سماعه، فأقبلت جميعها وأخذت تطير خارج الكوّة. شاهدنا عيونها الصغيرة اللامعة الحزينة من خلال القضبان الحديديّة.

ولكنها ما لبثت أن اختفت، ولم يعد لدينا من القوة ما نستطيع معه متابعة العزف.

قلت: «لقد عزفنا للمرّة الأخيرة.» وأعدت المزمار إلي جيبي.
كان ثمّة شيء آخر في جيبي! تحسسته فاكتشفت أنه الملعقة الصغيرة التي كانت تخصّ أخت توتي الصغيرة.
تمنيت أن تعود الطيور المسحورة لأريها الملعقة. لعلّ أخت توتي تميّزها. ولكن الطيور المسحورة لم تكن هناك.
لم أعد أقوى على حمل الملعقة لشدّة الإنهاك، فسقطت من يدي.
قلت: «هذه ملعقة يا بامبو!»
قال: «نعم. ولكن ما نفع الملعقة إن لم يكن لدينا ما نأكله بها؟»
استلقى على الأرض وأغمض عينيه. لقد بلغ به التعب والضعف حتى أنه لم يعد قادراً علي المزيد من الكلام. كنت كذلك مُنْهَكاً أشدّ الإنهاك، وآلمني التفكير بالطعام. تشهيّت أيّ شيء مهما كان طالما يمكن أكله. اشتهيت بصورة خاصّة قطعة من الخبز الذي يبدّد الجوع، ولكني كنت أدرك أنني لن أتذوقه من جديد أبداً. كنت شديد العطش أيضاً، وتشوّقت إلى ماء البئر التي تطفيء العطش، ولكني أدرك أنه لن يتاح لي أن آكل وأشرب من جديد. بل إنني اشتهيت العصيدة التي اعتادت العمّة هولدا أن تقدمّها لي في الفطور، وكنت أكرهها كثيراً. أما الآن فأنا على استعداد لتناول أي شيء، حتى تلك العصيدة، مع الاستمتاع بها أيضاً. آه! لو كان هنا أي شيء يؤكل.. أي شيء! بما تبقّى معي من قوّة رفعت الملعقة ووضعتها في فمي متظاهراً بأنني آكل.

عندئذ حدث شيء رائع! كان في الملعقة شيء.. شيء له طعم الخبز الذيً يبدّد الجوع، وطعم ماء البئر التي تطفيء العطش. كان هناك خبز وماء في الملعقة، وكان طعمهما ألذ من أي طعام أخر أكلته في حياتي. ملأني ذلك بالنشاط وتبدّد جوعي. والغريب في الملعقة أنها لا تفرغ. فقد بقي الطعام يأتي منها دون انقطاع حتى لم يعد بإمكاني تناول المزيد.

كان بامبو يتمدد على الأرض وقد أغمض عينيه. وضعت الملعقة في فمه. فأخذ يأكل كأنه يأكل في نومه. عندما فرغ من الطعام قال: «آه يا ميو! لقد رأيت حلماً رائعاً! كان يدور حول الخبز الذي يبدّد الجوع، والآن سيصبح الموت أهون عليّ.»

قلت: «لم يكن ذاك حلماً.»

فتح بامبو عينيه واعتدل جالساً. شعر بالحيوية التامة ولم يعد يشعر بالجوع إطلاقاً. أخَذَنَا التعجّب مما جرى، وكدنا نشعر بالبهجة حتى في ذلك الموقف البائس الذي كنا فيه.

قال بامبو: «ولكن، ماذا عسى السير كاتو يفعل عندما يجد أننا لم نمت من الجوع؟»

قلت: «لا يهمّني شيء إذا لم يعطنا قلبين من حجر. هذا أشدّ ما أخشاه. أعتقد أن مثل ذلك القلب سيشيط في صدري ويوجعني وجعاً رهيباً.»

قال بامبو: «لم ينقض الليل بعد. لن يأتي السير كاتو قبل مرور بضعة ساعات. دعنا نجلس ونتحدّث عن فاراوايلاند. سنجلس

متلاصقين حتى يدفيء أحدنا الآخر.»

كان الجوّ شديد البرودة في البرج، وكنا نرتجف. كان ردائي قد سقط عني فرفعته عن الأرض ولففته حولي. إنه الرداء الذي حاكت عليه السيّدة الحائكة قطعة من نسيج الحكايات الخياليّة.

عندئذ سمعت بامبو يصيح: «ميو! ميو! أين أنت؟»

قلت: «ها أنذا هنا! بجانب الباب.»

رفع بامبو المصباح الذي أعطونا إياه لنستضيء به في ساعاتنا الأخيرة، وأخذ يوجهه إلى جميع أنحاء الزنزانة، وبدا عليه الرعب الشديد.

قال بامبو: «لا أراك. وأنا لم أصب بالعمى لأني استطيع أن أرى الباب ذا القفل الثقيل وكلّ ما في السجن.»

هنا تنبهت إلى أنني ارتديت الرداء مقلوباً حتى صارت بطانته إلى الخارج. لقد صارت البطانة التي خاطتها السيّدة الحائكة من نسيجها اللامع البّراق إلى الخارج. خلعت الرداء لأعيد ارتداءه بالطريقة السليمة.

عندئذٍ صاح بامبو: «لا تختفي هكذا مرّة أخرى! أين كنت تختفي؟»

سألت: «هل تبصرني الآن؟»

قال: «طبعاً أبصرك. أين كنت تختبيء»

قلت: «في ردائي! يبدو أن الحائكة قد حوّلته إلى رداء سحريّ!»

جربّنا مرّات عدّة. وكنت كلما قلبت البطانة المصنوعة من النسيج الخرافيّ أختفي عن البصر.

قال بامبو: «دعنا نصرخ بأعلى أصواتنا، فيأتي الجواسيس ليَروْا سبب صراخنا. عندئذ تتسلّل من الباب دون أن يروك وأنت في ردائك السحريّ. ومنّ ثمّ تغادر حصن السير كاتو وتعود آمنا إلى فاراوايلاند.»

قلت: «وماذا عنك أنت يا بامبو؟»

قال بامبو: «عليّ أن أبقى هنا. لأنك لا تملك إلاّ رداءاً سحرياً واحداً.»

قلت: «أجَل، عندي رادء واحد فقط. ولكنّ عندي صديقاً واحداً أيضاً. ولذا فسوف نبقى معاً ونموت معاً إذا لم يكن بالإمكان أن ننجو معاً.»

طوقني بامبو بذراعه وقال: «لقد أردتك حقاً أن تعود بأمان إلى فاراوايلاند. ولكني لا أملك إلاّ أن أشعر بالسعادة لأنك تريد البقاء معي. أحاول أن أمنع نفسي من السرور لهذا، ولكني لا أستطيع ذلك.»

عندما قال هذا حدث شيء غريب؛ فقد عادت الطيور المسحورة. أقبلت نحو الكوّة ذات القضبان وهي ترفرف بأجنحتها بسرعة. كانت جميعها تتعاون على حمل شيء بمناقيرها. كلّها كانت تشارك في حمله بسبب ثقله. كان ذاك سيفي – سيفي الذي يقطع في الصخر!

قال بامبو: «آه يا ميو! لقد أحضرت الطيور المسحورة سيفك من قاع البحيرة الميّتة!؟»

هـرعت الى الكـوّة ومـددت يـدي عبر الـقـضبـان وأمسكت بالسيف. توهج السيف كشعلة من نار بينما كان الماء يقطر منه. حتى قطرات الماء كانت تتوّهج كالنار.

قلت: «شكراً أيتها الطيور الطيبّة!»

ولكن الطيور لم تجب، واكتفت بأن نظرت اليّ بعيونها الصغيرة اللامعة الحزينة. ثم طارت بعيداً وأخذت تنوح نواحاً حزيناً فوق البحيرة الميّتة!

قال بامبو:«أنا سعيد حقاً بأننا عزفنا بمزمارينا! لولا ذاك لما سمعتنا الطيور وما عرفت طريقها الى البرج.»

ولكني كنت منشغلاً عنه بسيفي. وقفت وهززته بيدي. إنه سيفي أنا دون غيري... شعلتي الناريّة! شعرت بالقوّة كما لم أشعر بمثلها في حياتي. ضجّ في داخل رأسي صوت هادر، وتذكّرت والدي الملك. وأدركت أنه يفكّر الآن بي.

قلت: «الآن يا بامبو! الآن تأتي معركة السير كاتو الأخيرة!»

شحب وجه بامبو شحوباً كبيراً، ولمعت عيناه بطريقة غريبة.

قال: «كيف لك أن تفتح الأقفال السبعة؟ كيف لك أن تتسلّل من بين الجواسيس السبعة والسبعين؟»

قلت: «بسيفي سأفتح الأقفال السبعة. وردائي يخفيني عن الجواسيس السبعة والسبعين.»

ثبتّ الرداء على كتفي، والتمع النسيج الخرافيّ في الظلام. بدا كأن بريقه الأخّاذ يضيء حصن السير كاتو كلّه، ولكن بامبو قال: «لا أستطيع أن أراك يا ميو على الرغم من أني أعرف أنّك هناك. سأنتظرك هنا حتى تعود.»

قلت: «ماذا لو أنني لم أرجع أبداً؟» هنا صمتّ أفكّر. من يدري أينا سينتصر على الآخر في معركة السير كاتو الأخيرة؟

فجأة عمّ الصمت زنزانتنا. ثم قال بامبو: «إذا لم تعد يا ميو، فسوف يذكر أحدنا الآخر. سوف يذكر أحدنا الآخر طوال الحياة.»

قلت: «أجَلْ يا بامبو! سأذكرك وأذكر والدي الملك حتى نَفَسي الأخير.»

رفعت سيفي وأهويتُ به على الباب الحديدي فشقّه كأنه مصنوع من الطين.

لا عجب. فبالنسبة إلى سيف يقطع في الصخر يبدو الباب الحديدي مثل قطعة من الطين. لقد نفذ السيف من الباب الحديديّ بلا صوت، كأنني أقطع في الطين. حطمت القفل الهائل بضربتين سريعتين فقط.

ثم فتحت الباب فأصدر صريراً خافتاً. كان هناك سبعة جواسيس يحرسون في خارج السجن. وحين سمعوا صرير الباب التفتوا جميعاً ونظروا إلى الباب وإليّ. وقفت هناك مرتدياً ردائي ذا النسيج الخرافي البّراق، وظننت أن بريقه الهائل سيُمَكِنهُم من

رؤيتي.

قال أحد الجواسيس: «لقد سمعت صريراً في الليل.»

قال آخر: «أجل. شيء ما أحدث صريرا في الليل.»

انطلقوا في كل اتجاه، ولكنهم لم يروني.

قال جاسوس آخر: «لعلّ إحدى أفكار السير كاتو الخبيثة قد عبرت من هنا فأحدثت ذلك الصرير.»

ولكني كنت قد صرت بعيداً عنهم في تلك اللحظة.

تمسّكت بسيفي وردائي وركضت بأقصى سرعتي نحو غرفة السير كاتو.

كان الجواسيس ينتشرون في كل مكان من القاعات والأدراج والمعابر. كانوا جميعاً يحرسون. كان الحصن الأسود كلّه يعجّ بالجواسيس المتّشحين بالسواد. ولكنهم لم يشاهدوني، ولم يسمعوني. وتابعت راكضاً نحو غرفة السير كاتو. لم أعد أشعر بالخوف إطلاقاً. بل لم أشعر بمثل تلك الجرأة من قبل. فأنا لم أعد ميو الذي يبني الأكواخ الصغيرة في حديقة الورود، ويلعب في جزيرة الحقول الخضراء. بل أنا الآن فارس يقبل على المعركة.

تابعت العدو نحو غرفة السير كاتو. وكان ردائي يرفرف من خلفي. كان يرفرف ويشعّ في الحصن المظلم بينما كنت أركض نحو غرفة السير كاتو.

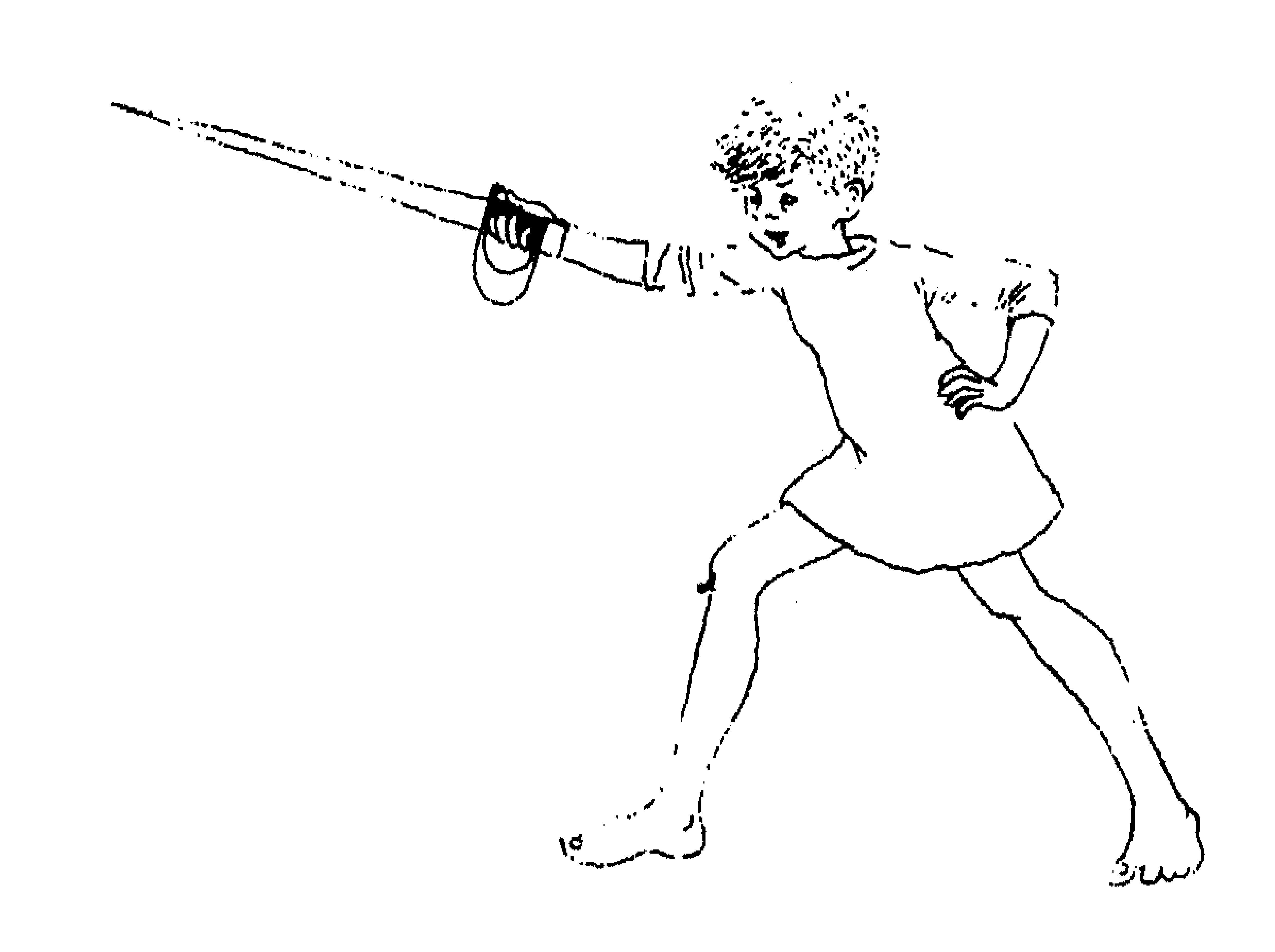
توهجّ السيف في يدي كشعلة من النار. شددت على مقبضه بقوّة، وتابعت العدو نحو غرفة السير كاتو.

فكّرت بوالدي الملك. كنت على يقين من أنه الآن يفكّر بي. المعركة تقترب.. إنها تقترب. إن التفكير بها لا يخيفني. إنني فارس لا يعرف الخوف، وسيفي بيدي. وتابعت الركض نحو غرفة السير كاتو.

ضجّ صوت هادر في داخل رأسي كأنه وقع الشلاّل. لقد صرت الآن أمام باب غرفة السير كاتو.

فتحت الباب ورأيت السير كاتو جالساً أمام طاولته الحجريّة وقد أدار ظهره إلى الباب. وكانت طاقته الشريرة تتوهّج حوله.

قلت: «استدر يا سير كاتو! ها هي قد جاءت معركتك



الأخيرة!»

استدار. عندئذٍ خلعت ردائي ليراني، ووقفت أمامه قابضاً على سيفي.

اكفهر وجهه البشع واكتسى بلون رماديّ، وارتعش جسمه بينما كانت عيناه تمتلآن بالرعب والحقد. وبسرعة التقط سيفاً من على الطاولة التي يقف عندها.. وهكذا بدأت معركة السير كاتو الأخيرة.

إن له سيفاً مخيفاً حقاً، ولكنه لم يكن بمستوى سيفي. برق سيفي وتوهّج في الهواء، وهوى كشعلة نار ليلاقي سيفه بلا هوادة.

المعركة التي مكث الناس ينتظرونها ألف ألف سنة استمّرت ساعة واحدة فقط.

هوى سيفي كالنار على سيف السير كاتو، وأخيراً أطار سيفه من يده. وهناك وقف السير كاتو أمامي بلا سلاح. وأدرك تماماً أن المعركة قد انتهت.

عندئذٍ مزّق معطفه المخملي الأسود من الأمام كاشفاً عن صدره وصاح:

«اطعن هنا في موضع القلب! سدّد مباشرة إلى قلبي الحجريّ واخترقه! إياك أن تخطيء. لطالما ثقل عليّ هذا القلب وآلمني كثيرا. خلّصني منه!»

نظرت في عينيه. وهناك رأيت شيئاً غريباً. رأيت أن السير كاتو يتمنّى أن يتخلّص من قلبه المقدود من الحجر. لعلّ أحداً لم يكن

يكره السير كاتو أكثر من كُرْهِهِ لنفسه!

لم أتليّث طويلاً. رفعت سَيفي المتوهج عالياً ثم أنفذته عميقاً في قلب السير كاتو الحجريّ الرهيب.

في تلك اللحظة اختفى السير كاتو. ولكن، ظهرت على الأرض كومة من الحجارة. لا شيء إلاّ كومة من الحجارة ومخلب حديديّ.

على عتبة النافذة وقف طائر رمادي صغير ينقر الزجاج. بدا كأنه يريدني أن أطلقه. لم أر هذا الطائر من قبل، ولا أدري أين كان مختبئاً. مشيت إلى النافذة وفتحتها له لينطلق طائراً. ببساطة تامّة قذف الطائر نفسه إلى الخارج وعلا بعيداً في الفضاء وهو يصفق بجناحيه بسعادة غامرة. أرجّح أنه كان سجيناً لوقت طويل.

مكثت عند النافذة أراقب الطائر وهو يطير بعيداً. وتنبّهت إلى أن الليل قد انقضى وحلّ الصباح.



١٢. ميو، يا ولدي!

نعم لقد جاء الصباح. وكان صباحاً جميلاً رائعاً. أرسلت الشمس شعاعها الهادىء وعبثت نسمة صيفية لطيفة بشعري بينما كنت أقف عند النافذة المفتوحة. ملْتُ إلى الأمام ونظرت إلى البحيرة. كانت بحيرة صغيرة مرحة زَرقاء يُلمع فيها ضوء الشمس. وقد ذهبت الطيور المسحورة.

آه، ما أجمله من نهار! إنه من تلك الأيام التي تحب فيها أن تَخْرُجَ للنزهة والتجوال. نظرت إلى الماء أسفل مني وكان نسيم الصباح يهزه هزاً رقيقاً. شعرت بالرغبة في أن أُسْقِطَ شيئاً في البحيرة. هذا ما يشعر به الانسان في العادة حين يراقبَ الماء. تخيّل جمال الرشاش الذي يمكن أن يحدثه سقوط شيء ما في الماء من مكان عالٍ كالذي كنت فيه! لم يكن معي ما أسقطه غير سيفي، ولذا تركته يسقط. كم كان من الممتع أن أراه يسقط عبر الهواء، ثم يضرب الماء فيرسل الرشاش حيث سقط. ترك سقوطه في الماء دوائر كبيرة، دوائر جميلة أخذت تتسع وتتسع حتى عمّت البحيرة كلها.

ولكن لم يكن لدي وقت لأتابع الوقوف وأراقب الدوائر وهي تتلاشى. كان عليّ أن أعود مسرعاً إلى بامبو. لا بدّ أنه ينتظرني قلقاً متوتراً.

ركضت عائداً في الطريق الذي سلكته قبل ساعة. بدت

الصالات والمعابر الطويلة فارغة صامته. لم يكن هناك جاسوس واحد. لقد اختفوا جميعاً. كانت أشعة الشمس تملأ الصالات المهجورة. كانت تشعّ عبر النوافذ ذات القضبان الحديديّة، وتضيء نسيج العنكبوت الذي كان يتدلّى من الأقواس. وبدا واضحاً أن الحصن قديم ومتهالك.

كان الصمت والوحشة يعمّان أنحاءِ المكان. وفجأة اعتراني الخوف من أن يكون بامبو قد اختفى أيضاً. ولذا ضاعفت سرعتي. ولكن، حين اقتربت من البرج سمعت بامبو يعزف بالمزمار، ففارَقَني الخوف والقلق.

فتحت باب السجن، فوجدت بامبو جالساً على الأرض. لَمَعَتْ عيناه حين رآني، ونهض وقال:«كان لا بدّ لي من متابعة العزف. كنت شديد القلق.»

قلت: «ليس عليك أن تقلق بعد الآن.»

غمرتنا السعادة، وطفقنا نتبادل النّظر ونضحك!

قلت: «سنخرج من هنا. سنخرج من هنا الآن ولن نعود أبداً.»

أمسك كل منا بيد الآخر، وركضنا خارجيْن من حصن السير كاتو. بدأنا نعبر الساحة الخارجيّة، وفجأة توقفنا هناك وقد أخذتنا الدهشة العارمة. أي حصان يمكن أن يقبل علينا جارياً في تلك اللحظة غير ميراميس! حصاني ميراميس ذو العرف الذهبّي! وإلى جانبه كان يجري فِلوٌ صغير.



أقبل ميراميس عليّ مباشرةً، فطوّقت عنقه بذراعيّ، وألصقت رأسه الجميل برأسي وقتاً طويلاً، بينما طفقت أهمس في أذنه: «ميراميس! حصاني العزيز ميراميس!»

نظر إليّ ميراميس بعينيه الوفيّتين، فأدركت أنه قد اشتاق إلي بقدر ما اشتقت إليه.

كان هناك سارية خشبية في وسط الساحة. ورأيت سلسلة ملقاة إلى جانبها. عندئذٍ أدركت أن ميراميس كان قد سُحِر أيضاً. لقد

كان هو ذلك الحصان الأسود الذي كان مقيّداً إلى السارية في أثناء الليل. أما الفلْوُ الصغير فلم يكن غير ذلك الذي اختطفه السير كاتو من «غابة أشعة القمر». انّه الفلْوُ الصغير الذي كانت الخيول البيضاء المائة تبكي دماً من أجله. لم يعد بها الآن حاجة إلى البكاء. قريباً يلتحق بها فلوها الصغير.

قال بامبو: «ولكن، ماذا عن الآخرين الذين أسرهم السير كاتو؟ الطيور المسحورة! أين ذهبت؟»

قلت: «دعنا نمض إلى البحيرة لنبحث عنها هناك.»

امتطينا صهوة ميراميس وانطلقنا. ولحق بنا الفلْوُ الصغير بأقصى سرعته، ثم عبرنا من بوابة الحصن.

عندئذ سمعنا دويّاً هائلاً وراءنا اهتزّت له الأرض. لقد انهار حصن السير كاتو وصار كومة من الحجارة والصخر.. لقد ذهبت الأبراج، وذهبت الصالات الموحشة، وذهبت الأدراج الملتوية، وذهبت النوافذ ذات القضبان الحديديّة. لم يبق شيء إلاّ كومة هائلة من الحجارة.

قال بامبو: «لقد ذهب حصن السير كاتو إلى الأبد.»

قلت: «نعم، لم يبق الآن غير الحجارة.»

كانت الطريق تنحدر من صخرة الحصن انحداراً شديداً ملتوياً نحو البحيرة. كانت ضيّقة متعرّجة خطرة. ولكن ميراميس كان حذراً مترفّقاً في مشيته، فوصل بنا إلى شاطيء البحيرة بسلام. وكذلك فعل الفلو الصغير.



وجدنا هناك مجموعة من الأطفال يقفون على مُسَطّح صخريٍ أدنى الجرف. وبدا أنهم كانوا في انتظارنا، إذ إنهم أقبلوا علينا فوراً بوجوه مضيئة.

قال بامبو: «آه! ها هما أخوا نومو. وتلك أخت توتي، والآخرون كلهم هنا! لم يعد هناك طيور مسحورة الآن!»

قفزنا عن ظهر ميراميس. وتجمّع الأطفال حولنا. بدا عليهم الحياء، إلاّ أنهم في الوقت نفسه بَدَوْا سعداء وَدُودِين. اقترب مني أحد أخَوَيْ نومو، وأمسك بيدي وقال بصوت خافت كأنه لا يريد أن يُسْمِعَ غيري: «أنا سعيد لأنك تلبس ردائي، وسعيد لأننا لم نعد مسحورين.»



ثم اقتَرَبَتْ مني أخت توتِي. لم تنظر إليّ، بل ذهبت ببصرها إلى البحيرة لأنها كانت خَجولا. ولكنها قالت بصوت خافت أيضاً: «أنا سعيدة لأنك استعملت ملعقتي، وسعيدة لأننا لم نعد مسحورين.»

ثم جاء الأخ الثاني لنومو، ووضع يده على كتفي، وقال: «أنا سعيد جداً لأننا استطعنا أن نستخرج سيفك من قاع البحيرة، وسعيد لأننا لم نعد مسحورين.»

قلت: «لقد عاد السيف إلى قاع البحيرة. ولا بأس في ذلك. فلن أحتاج إليه أبداً بعد اليوم.»

قال أخو نومو: «كلا، لن تحتاج إليه. ولن يكون بإمكاننا أن نحضره على أية حال لأننا لم نعد طيورا مسحورة.»

قلّبت بصري بين الأطفال جميعاً وسألت: «أيّكم إبنة الحائكة الصغيرة؟»

لم يجب أحد منهم

عدت أسأل: «أيّكم إبنة الحائكة الصغيرة؟» كنت حريصاً على أن أقول لها إن بطانة ردائي هي من قماش النسيج الخرافيّ الذي نسجته أمّها الحائكة.

قال شقيق نومو: «أنت تسأل عن ميليماني ابنة الحائكة الصغيرة.»

سألت: «اين هي؟»

قال شقيق نومو: «إنها تتمدّد هناك.» وانزاح الأطفال جانباً.

هناك على مُسَطّح صخريّ بالقرب من حافة البحيرة كانت تتمدّد فتاة صغيرة. هرعتُ نحوها وانحنيت إلى جانبها. كانت تتمدد ساكنةً مغمضة العينين. لقد كانت ميّتة. كان وجهها أبيض صغيراً وكان جسمها محترقاً.

قال شقيق نومو: «إنها هي التي لطمت المشعل.»

شعرت بحزن عميق. لقد ماتت ميليماني لتنقذني. حزنت كثيراً. لا أظنّ أني سأشعر بالسعادة بعد الآن وقد عرفت أن ميليماني قد ماتت لتنقذني.

قال شقيق نومو: «لا تحزن! لقد اختارت ذلك بشجاعة. أرادت أن تطير وتلطم المشعل على الرغم من أنّها كانت تدرك أن النار ستشتعل بجناحيها.»

قلت بأسى غامر: «وها هي ميّتة الآن!»

أخذ شقيق نومو يَدَيْ ميليماني الصغيرتين المحترقتين بيديه، وقال: «علينا أن نتركك هنا يا ميليماني. ولكن قبل ذلك سنغنّي لك أغنيتنا.»

جلس الأطفال جميعاً على المسطح الصخريّ حول ميليماني، وأخذوا يغنّون أغنية ألّفوها بأنفسهم:

«ميليماني يا أختنا الصغيرة!
يا أختنا التي غرقت في الموج
غرقت في الموج بجناحين يحترقان
ميليماني.. آه ميليماني!

إنها تنام بسلام ولن تصحو أبداً
ولن تطير بعد الآن ميليماني
فوق الماء الداكن مع الصيحات الحزينة»

قال بامبو: «كلا لن تطير فوق الماء الداكن. إذ لم يعد الماء داكناً. ليس في البحيرة الآن غير موجات رقيقة هادئة تغنّي لـ «ميليماني» التي ترقد الآن على الشاطيء.»

قالت أخت توتي: «ليت عندنا ما نلفّها به.. شيئاً طرياً ناعماً يقيها قسوة الصخرة.»

قلت: «سنلف ميليماني بردائي. سنلفّها بالقماش الذي نسجته أمُّها.»

لففت ميليماني بردائي الذي كان مبطّناً بالنسيج السحريّ. كان أنعم من نَوْر شجر التفاح، أرق من نسيم الليل الذي يداعب العشب، وأدفأ من دم القلب الأحمر ـ وعدا عن ذلك فان أمّها هي التي حاكته. بعناية فائقة لففت ميليماني المسكينة بالرداء، لكي تنام نوماً مريحاً فوق الصخرة.

ثم حدث شيء رائع! فتحت ميليماني عينيها ونظرت اليّ! في البدء مكثت مستلقية تنظر اليّ وحسب. ثم اعتدلت جالسة ونظرت حولها بدهشة الى جميع الأطفال. لبثت تقلّب بصرها فيما حولها وتزداد دهشة على دهشة.

ثم قالت: «ما أشدّ زرقة البحيرة!»

لم تقل غير هذا، ثم خلعت عنها الرداء ونهضت واقفة. واختفى

عن جسمها جميع آثار الحروق. لا يستطيع أحد أن يتصوّر مدى فرحتنا بأنها عادت الى الحياة!

ثم رأينا قارباً يقبل نحونا في البحيرة. كان شخص ما يُجَذّف بضربات قويّة بمجذافيه. عندما اقترب القارب استطعت أن أميّز صانع السيوف، وكان معه اينو.

وما هي حتى رسى القارب عند المسطّح الصخري. وقفز الرجلان الى الشاطيء. صاح صانع السيوف بصوت مُدوّ: «ماذا قلت لكم؟ ألم أقل إن معركة السير كاتو الأخيرة آتية؟ هذا ما قلته.»

أقبل اينو نحوي متلهفاً وقال: «أريد فقط أن أُرِيَكَ شيئاً أيها الأمير ميو؟»

مدّ يده المتجعّده ليريني ما فيها. كان يحمل في راحته احدى أوراق الشجر. كانت ورقة خضراء غاية في الجمال والروعة؛ تظهر عروقها الدقيقة وتبدو ناعمة يانعة.

قال اينو: «انها من الغابة الميّتة. وجدتها قبل قليل فقط نامية على شجرة من أشجار الغابة الميّتة.»

هزّ رأسه برضاً وسعاده، وأخذ رأسه الرماديّ الأشعث الصغير يرتفع وينخفض ويرتفع وينخفض.

«سأخرج كل صباح الى الغابة الميّتة لأرى ما اذا كان هناك المزيد من الأوراق الخضراء. تستطيع أن تأخذ هذه أيها الأمير ميو!»

وضع الورقة في يدي، وبدا كأنه يتنازل عن أغلى هديّة في العالم.

هز رأسه من جديد، وقال: «جلست ودعوت لك بالتوفيق أيها

الأمير ميو. مكثت هناك في كوخي أدعو لك بالتوفيق والسلامة.»
قال صانع السيوف: «ماذا قلت لكم؟ ألم أقل إن معركة السير كاتو الأخيرة آتية؟ هذا ما قلته.»
سألت صانع السيوف: «كيف استرجعت قاربك؟»
أجاب: «حمله الموج عبر البحيرة.»
نظرت عبر البحيرة نحو جبل صانع السيوف وكوخ إينو. فرأيت المزيد من القوارب مقبلةً علينا. كانت تحمل أناساً لا أعرفهم. بدا عليهم الشحوب والنحول، وكانوا يجيلون أبصارهم في السماء المشمسة والبحيرة الزرقاء، وقد أخذتهم الدهشة وبدت عليهم السعادة. لا أعتقد أنهم رأوا الشمس من قبل. وها هي الآن معلقة في السماء، ترسل أشعتها البراقة إلى كل مكان من البحيرة وصخور الشاطيء. لقد بدت غاية في الجمال والروعة. لم يكن في المكان شيء قبيح المنظر إلاّ تلك الكومة الهائلة من الحجارة على قمّة صخرة الحصن. ولكني حدّثت نفسي قائلا: في يوم من الأيام ستنمو الطحالب الخضراء على تلك الكومة من الحجارة. سوف تخفيها الطحالب الخضراء الطريّة فلا يعرف أحد أن تحتها تختفي بقايا حصن السير كاتو.
لقد رأيت في حياتي سابقاً زهوراً زهريّة اللون تفضل النموّ بين الطحالب. إنها تشبه أجراساً صغيرة جدّاً وتمدّ فروعها في خطوط طويلة كثيفة. لعلّه في يوم من الأيام ستنمو أجراسٌ زهريّة صغيرة بين الطحالب، فوق بقايا حصن السير كاتو. أعتقد أن ذلك سيشكل

منظراً جميلاً.

كانت طريق العودة طويلة، ولكن المشي هناك كان سهلاً. تركنا الأطفال الصغار يمتطون ميراميس، أما أصغرهم فامتطوا الفلو الصغير. لقد استمتعوا بذلك كثيراً. أما البقيّة فسارت على الأقدام، حتى بلغنا «غابة أشعّة القمر».

كان الليل قد هبط قبل وصولنا، فصارت «غابة أشعة القمر» مغمورة بضياء القمر كما كانت من قبل. كانت الغابة هادئة ساكنة، إلاّ أن ميراميس أخذ يصهل صهيلاً عالياً، فجاوبته من بعيد مائة من الخيول البيضاء تصهل بنفس القوّة والعلوّ. ثم أقبلت الخيول تعدو نحونا بحوافر تقرع الأرض بصوت مدوٍّ. بدأ الفلو الصغير في الصهيل كذلك. حاول أن يصهل بأعلى ما يستطيع مقلّداً الخيول الأخرى، ولكنه لم يتمكن الاّ من إطلاق صهيل خافت ظريف يكاد ألاّ يُسْمع. ولكن، يبدو أن الخيول البيضاء المائة قد تمكنت من سماعه على أية حال. ولكم كانت سعادتها بعودته إليها! تحلقت حوله وحاول كل منها أن يقترب منه ويلامسه، كأنها كانت تريد أن تتأكد من أنه بالفعل فلوها الصغير قد عاد الى أهله ووطنه.

لدينا الآن مائة من الخيول، فلم يعد أيّ منا يحتاج الى المشي. امتطى كل من الأطفال أحد الخيول. وامتطيت أنا ميراميس وأردفت بامبو خلفي كالعادة. لم يرد أن يركب على أي حصان غير ميراميس. وتركنا طفلة صغيرة، أصغر الجميع، تركب الفلو.

مضينا بالخيول عبر الغابة، وبدت الخيول البيضاء المائة رائعة الجمال في ضوء القمر.

ثم ما لبثت أن رأيت شيئاً أبيض يلمع بين الأشجار. ذاك كان نَوْرُ شجر التفاح المحيط بكوخ السيّدة الحائكة. كان نَوْرُ شجر التفاح يطرّز الأشجار حول الكوخ الذي بدا كعادته مثل أكواخ الحكايات الخياليه. سمعنا قرعاً متصلاً في الداخل، فقالت

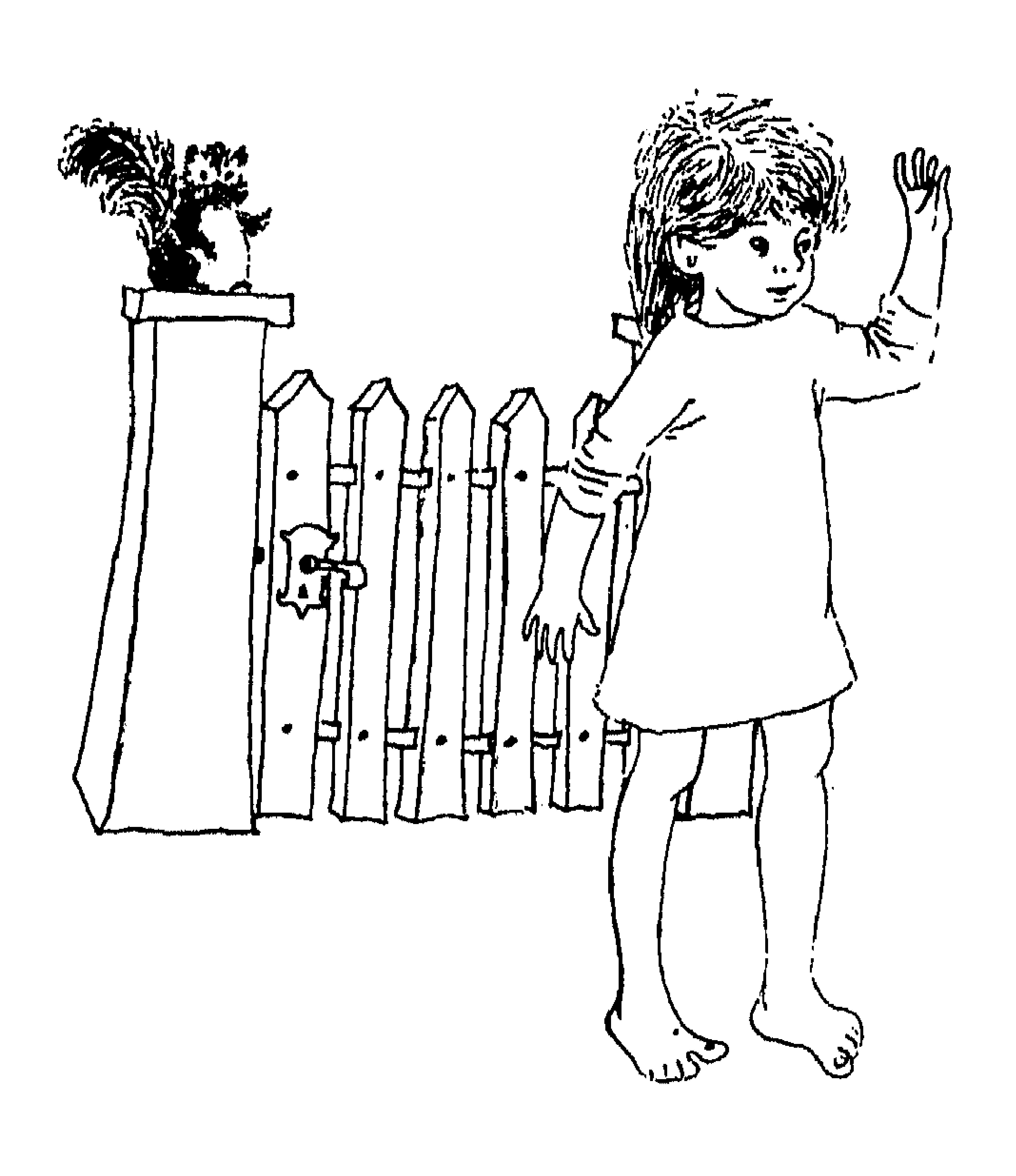


ميليماني: «تلك أمّي تنسج بالنّوْل!»

قفزت عن ظهر الحصان أمام البوّابة، ولوّحت بيدها قائلة: «أنا سعيدة جداً بعودتي إلى البيت، وسعيدة جداً أنّي عدت قبل أن ينقضي موسم زهر التفاح!»

ركضَتْ عبر الطريق المحاطة بالأشجار من الجانبين، ثم اختفت داخل الكوخ. وتوقف قرع النّوْل.

كانت الطريق إلى جزيرة الحقول الخضراء ما تزال طويلة أمامنا. وازداد شوقي إليها وإلى والدي الملك. ارتفعت الخيول البيضاء المائة



بقيادة ميراميس في الهواء فوق «غابة أشعة القمر»، وطارت فوق أعلى الجبال سابحة في الهواء نحو جزيرة الحقول الخضراء.

كان الوقت صباحا حين وصلنا إلى «جسر نور الصباح». وكان الحرّاس قد أنزلوا الجسر فأخذ يتلألأ بالأشعة الذهبيّة، بينما كانت الخيول المائة تعدو عليه وقد مدّت أعناقها وأخذت أعرافها تتموّج في الريح. وقف الحرّاس منذهلين يحدّقون بنا. ثم نفخ أحدهم بوقه فانطلق الصوت مدوّياً في أرجاء «جزيرة الحقول الخضراء» وما هي حتى أقبل الناس راكضين من كل بيت وكوخ. إنهم الناس الذين طال حزنهم على الأطفال الذين سلبوا منهم. أما الآن فقد شاهدونا عائدين بكل الأطفال. لقد عادوا جميعاً إلى أهلهم وديارهم.

تَابَعَت الخيول البيضاء عَدْوهَا عبر الحقول، وما هي حتى وصلنا إلى حديقة والدي الملك. هناك قفز جميع الأطفال، وأقبل آباؤهم وأمهاتهم نحوهم راكضين. وكان تصرّفهم في تلك المناسبة السعيدة مماثلاً لتصرّف الخيول البيضاء المائة حين لَقِيَتْ فلْوها الصغير.

كان نومو هناك أيضاً مع جدّته، وكذلك توتي وإخوانه وأخَواته، ووالدا بامبو، وآخرون كثيرون لم أرهم من قبل. بكَوْا وضحكوا من شدّة السعادة، واحتضنوا أطفالهم العائدين إلى بيوتهم، وأخذوا يقبّلونهم بفرح غامر.

ولكنّ والدي الملك لم يكن هناك!

لم نعد في حاجة إلى الخيول البيضاء المائة، فعادت أدراجها إلى

«غابة أشعّة القمر.» شاهدتها تعدو عبر الحقول، وكان الفلو الصغير في مقدّمتها.

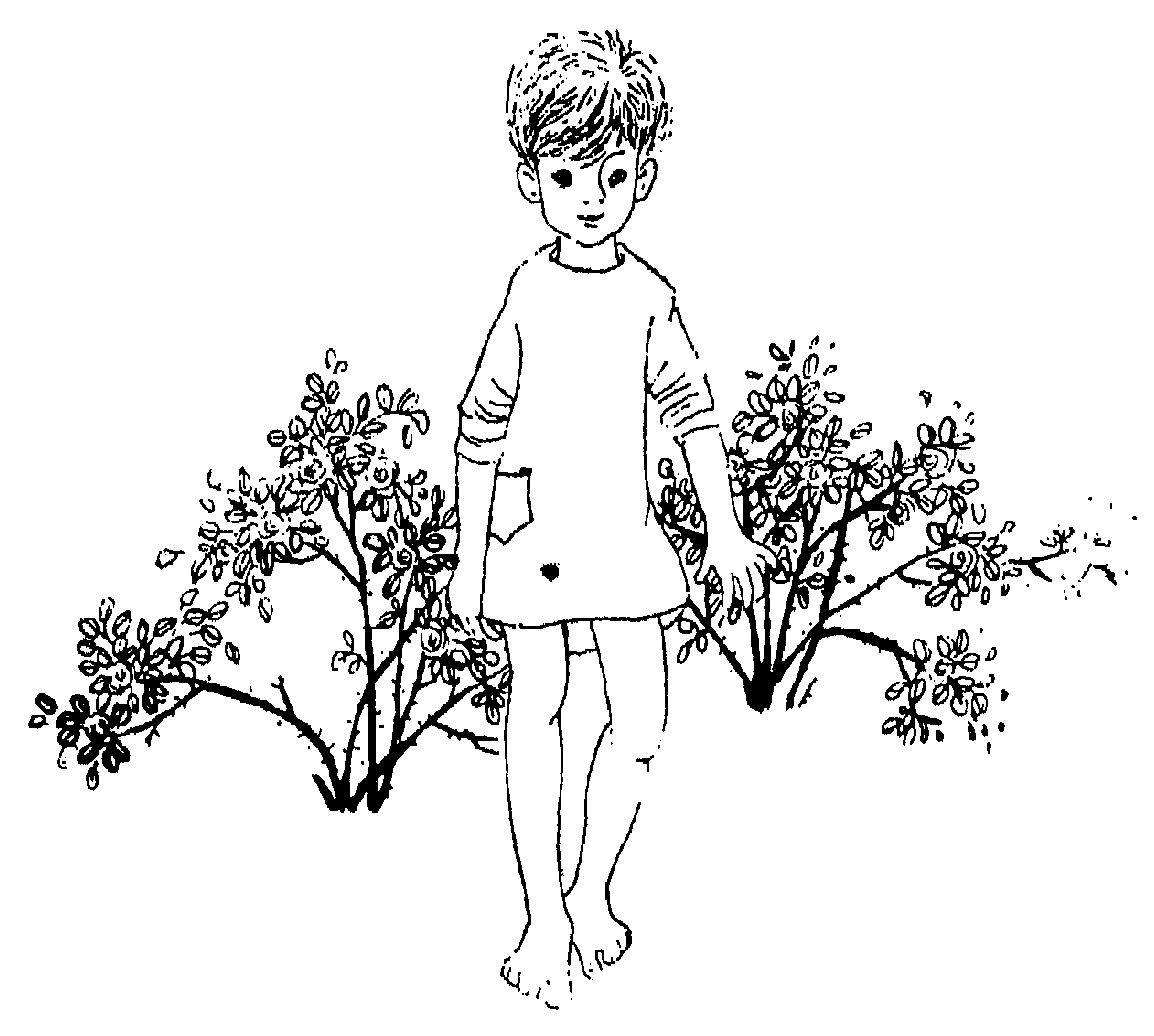
كان بامبو منشغلاً بالحديث مع أمّه وأبيه يقصّ عليهما كل ما جرى معنا، فلم يلحظني أفتح باب حديقة الورود وأنسلّ منه. لم يتنبّه إليّ أحد وأنا أعبر إلى حديقة الورود. وهذا ما كنت أريده. أحببت أن أذهب هناك وحدي. مشيت تحت أغصان شجر الحَوْر الفضيّ، وكانت كعادتها تطلق موسيقى عذبة. كانت الورود متفتحة كشأنها من قبل. كان كل شيء على حاله المعهودة.

ثم رأيت والدي الملك! كان يقف في نفس المكان الذي تركته فيه حين فارقته إلى غابة «أشعة القمر»، وإلى الأرض القصيّة! كان يقف وقد مدّ ذراعيه نحوي، فألقيت نفسي بينهما وطوّقت عنقه بذراعي. ضمّني بشدّة وهمس: «ميو، يا ولدي!»

ألا ترون! إن والدي الملك يحبّني حباً جمّاً، وأنا كذلك أحب والدي الملك.

قضيت وقتاً رائعاً طوال اليوم. لعبنا في «حديقة الورود». وكان معي بامبو؛ ونومو وإخوانه، وتوتي وإخوانه وأخواته، وجميع الأطفال الآخرين. أريناهم الكوخ الذي بنيته مع بامبو، فعبّروا عن إعجابهم الشديد بروعته. ركبنا على ميراميس وقفز بنا فوق أسيجة الورد. لعبنا بردائي السحريّ، وأصرّ شقيق نومو على أن يبقي الرداء لي وقال: «البطانة السحريّة ملكك على أية حال».

لعبنا بالرداء السحريّ لعبة التخفّي والبحث. ارتديته مقلوباً



لأختفي عن أبصارهم، وأخذت أركض بين شجيرات الورد وأصيح: «لن تستطيعوا الأمساك بي! لن تستطيعوا الامساك بي!»

ولم يتمكّنوا من الامساك بي على الرغم من كل المحاولات.

اقترب المساء، فكان على الأطفال أن يعودوا إلى بيوتهم. أقدّر أن أمهاتهم وآباءهم لا يحبون أن يتأخر أولادهم في أول مساء لهم بعد العودة.

مكثت وبامبو وحدنا في كوخنا. عزفنا بمزمارينا بينما كان غسق المساء يهبط على «حديقة الورود.»

قال بامبو: «سنعتني بمزمارينا ونحافظ عليها. وإذا حدث أن أضاع أحدنا الآخر فسنعزف اللحن القديم.»

في تلك اللحظة جاء والدي الملك ليأخذني. ودّعت بامبو وانطلق عائداً إلي بيته. ألقيت تحية المساء على ميراميس الذي كان يرعى العشب إلى جوار الكوخ. ثم أخذت بيد والدي الملك ومشينا عائدين عبر حديقة الورود!

قال والدي الملك: «ميو، يا ولدي! أعتقد أنك كبرت في أثناء غيابك! أعتقد أن علينا أن نضع علامة جديدة على باب المطبخ هذه الليلة.»

مشينا تحت أغصان شجر الحور الفضي، ولف نور الغسق كل الحديقة بغلالة رقيقة زرقاء. آوت الطيور إلى أعشاشها. ولكن، على قمة أعلى أشجار الحور الفضي وقف طائر الأسى يغنّي وحده. لا أدري الآن ما الذي يغنّي عنه، بعد أن عاد جميع الأطفال إلى منازلهم. ولكن، لعّل طائر الأسى لديه دائماً ما يغنّي عنه.

بعيداً في المراعي بدأ الرعاه يشعلون نيرانهم. وأخذت المواقد المتفرّقة تلمع في وقت الغسق. وسمعت الرعاة يعزفون في البعيد. كانوا يعزفون المقطوعة القديمة نفسها.

مشيت مع والدي الملك ويده في يدي، وأخذنا نطوّح بذراعينا المشبوكتين. نظر والدي الملك إليّ وأطلق ضحكة خفيفة. بادلته النظر وقد غمرتني السعادة.

قال والدي الملك: «ميو يا ولدي!»

ذاك فقط، ولم يقل شيئاً آخر.

«ميو، يا ولدي!» هذا ما قاله والدي الملك بينما كنا نسير نحو البيت في وقت الغسق.

حلّ المساء، وتبعه الليل.

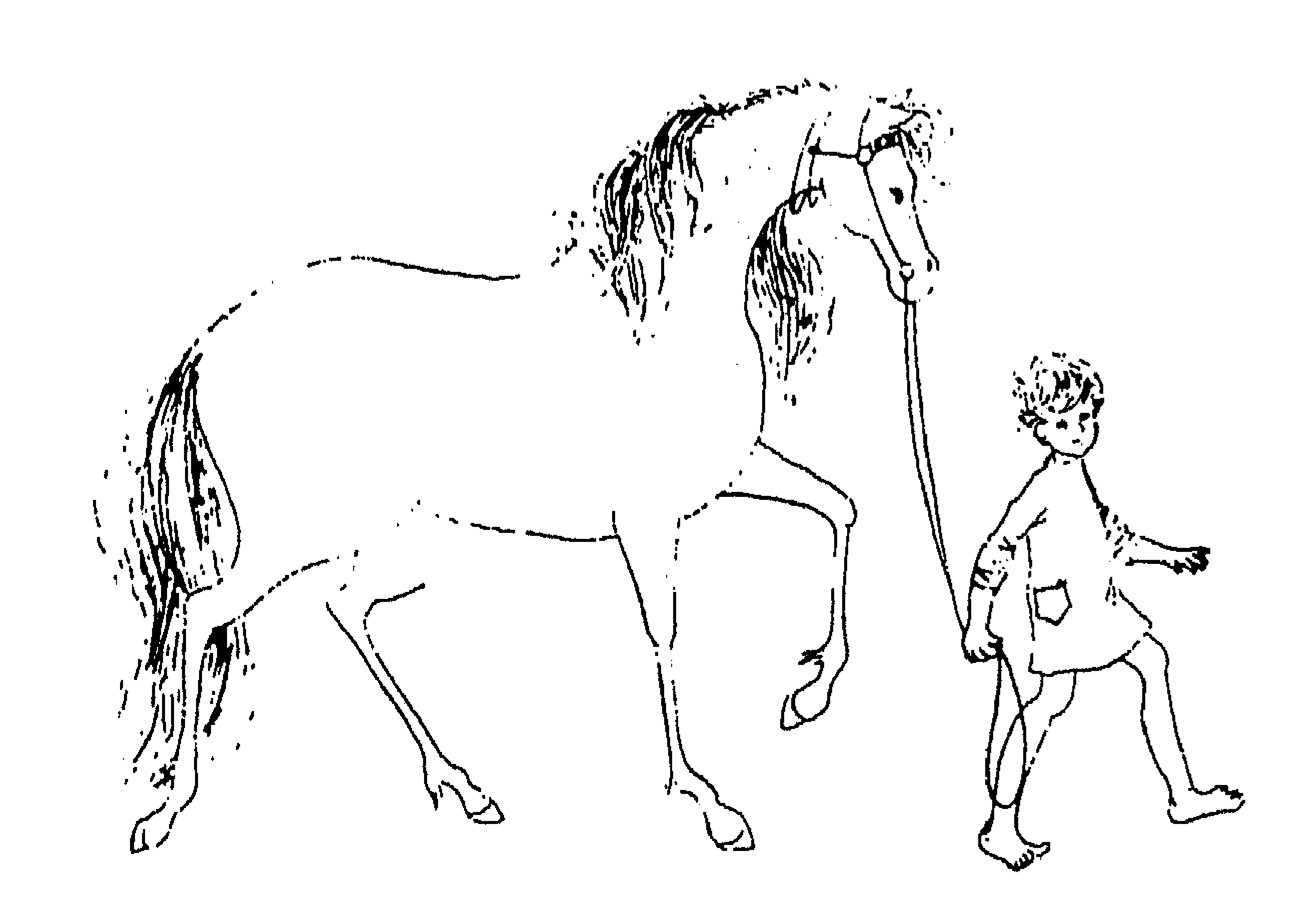
لقد مضى الآن عليّ وقت طويل منذ قدمت الى فاراوايلاند. لا أفكّر كثيراً بالزمن الذي عشته في شارع نورث. انما أفكّرُ أحياناً بصديقي القديم «بن» لأنه يشبه «بامبو».

أرجو أن يكون «بن» قد اعتاد غيابي وأنه لم يعد يفتقدني كثيراً. فأنا أعْرَفُ الناس بالألم الذي يسببّه افتقاد شخص عزيز. ولكنّ «بن» ينعم بأب وأم، ولا بدّ أنه قد وجد صديقاً عزيزاً آخر الآن.

أحياناً أفكّر بالعمّة هولدا والعم أولاف. والحقيقة أنني لم أعد أشعر بالغضب والمرارة منهما. ومع ذلك أحب أن أعرف ماذا قالا حين اختفيت هذا اذا كانا قد تنبّها الى غيابي في المقام الأوّل! لم يكونا يلتفتان اليّ، ولذا لعلّهما لم يدركا أني قد غادرت. لعلّ العمّة هولدا تعتقد أن كلّ ما عليها فعله هو أن تنزل الى المُتَنزّه لتبحث عني، وسوف تجدني هناك جالساً على أحد المقاعد. لعلّها تعتقد أنني أجلس على المقعد القريب من مصباح الشارع آكل تفاحة وأعبث بزجاجة عصير فارغة أو أي نفاية أخرى. لعلّها تعتقد أنني هناك أراقب البيوت التي ينبعث الضوء من نوافذها ويجلس فيها أطفال يتناولون العشاء مع آبائهم وأمهاتهم. ولعلّها تشعر الآن بالغضب لأنني تأخرت عليها كثيراً في احضار الخبز الذي طلبته.

ولكن العمّة هولدا مخطئة! إنها مخطئة كل الخطأ! لا يوجد الآن طفل اسمه أندي يجلس على أحد المقاعد في المتنزه. إنه في فاراوايلاند، كما أقول لكم. إنه في مكان تتهامس فيه أشجار الحور الفضيّة... إنه في مكان تتوهج فيه مواقد النار وتدفيء الليل... إنه في مكان يأكل الناس فيه الخبز الذي يبدّد الجوع... إنه هنا في هذا المكان مع والده الملك الذي يبادله حباً بحبّ.

هكذا هي الأمور هنا. إن كارل أندرز نيلسون يعيش في فاراوايلاند مع والده الملك، والأمور كلها تجري على أكمل وجه مع ميو.



أسترید لیندجرین

میو، یا ولدي!



هل استمعتم الى المذياع في الخامس عشر من شهر أكتوبر/ تشرين اول في العام الماضي؟ هل استمعتم اليهم يتساءلون عمّن شاهد الصبيّ الذي اختفى فجأة؟ هذا ما أذاعوه:

«يبحث رجال الشرطة عن الطفل كارل أندرز نيلسون البالغ من العمر ثمانية أعوام بعد أن اختفى فجأة من منزله الكائن في شارع نورث منذ الساعة السادسة مساء أول من أمس. كارل أندرز نيلسون ذو شعر أشقر وعينين زرقاوين، وفي وقت اختفائه كان يرتدي «بنطالاً» بنياً قصيراً «وكنزة» رمادية ويضع على رأسه قبعة حمراء. يرجى ممن رآه أو كان لديه أية معلومات عنه أن يتصل بأقرب مخفر للشرطة».

هذا ما قالوه. ولكن لم يتلقّ أحد أية معلومات عن كارل أندرز نيلسون. لقد اختفى تماماً ولا أحد يعرف مكانه.....
هكذا تبدأ حكاية ميو، يا ولدي!

ISBN 91 88356 48 5

دار المنى